الوحشة والأمان

الوحشة والأمان

الوحشة والرعب والخوف والقلق، كلمات صاعقة تضرب شعور المخلوق من الداخل قبل إدراكها بحواسه أو وصول رنين نغمتها المفزع إلى طبلة أذنه، ومن منا لا تشكل هذه الأشياء الراجفة أولولية على رأس قائمة اهتمامته في حياته كلها؟ لقد جبلت جميع المخلوقات على تحري الأمن والطمأنينة في كل شيء، والهروب من مصادر الخوف والوحشة والخطر، والبحث عن الملاذات الآمنة، بل إن الخائف لا يهرب من الخطر المعروف عنده الذي استوعبه وأدركه وتصوره فحسب، بل أصبح من شدة الحيطة والحذر يفترض أخطارًا لا تنتهي، ويهرب منها تحرزًا واحتياطًا للسلامة، فتراه يظل قلقًا خائفًا على مدار الساعة من وحشة وجوده بلا ملاذ آمن يلوذ به، وقد يصل به الخوف من المجهول إلى مرحلة الانفلات العقلي والجنون، ربما يكون المجنون مجرد إنسان طبيعي أطل برأسه من نافذة من نوافذ الوجود الغامضة، فتأمل ما وراءها وما وصل إليه خياله، فلم يصحبه بذلك يقين من الإيمان يحميه من هذه الموحشات الجديدة، ويفسرها له، فانفجر صارخًا مهرولًا يمينًا أو شمالًا بحال حكم عليه الناس بالجنون بسببه، ويُعدّ الإنسان بعقله وإدراكه من أشد المخلوقات حرصًا على جلب الأمن ودرء الخطر منذ أن استخلفه الله في الأرض، ومنحه عقلًا مميزًا يفكر به، ويستقرئ المستقبل، ويرتب أمور حياته متلمسًا الحال الأفضل له، ومع ذلك لا يسلم دائمًا.

هذه الوحشة الوجودية الكبرى لا تقارن بالموحشات المعتادة كالخوف من الموت أو السبع أو الثعبان أو الحريق أو الحوادث ونحوها، إن الوحشة التي نتحدث عنها هنا هي من نوع تُنسي التفكير في هذه الوحشات الطبيعية كلها، أشار القرآن إلى صور منها في أكثر من موضع، حيث تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، ومنها يفر المرء من أهله جميعًا، ويصبح الولدان شيبًا من أهوالها، وهذه الوحشة ليست في المستقبل فقط بل هي موجودة معنا بصمت تتربص بنا، فلو أنك تأملت قليلًا وبتركيز المتمعن مدة دقائق معدودة في (ذاتك) فقط وما حولك من الموجودات، ماهيتها وطبيعتها وأصلها، ستدرك أنك تعيش في عالم الغرائب الموحش جدًّا بل أغرب

الغرائب كلها، وستصل إلى حالة وحشة وجودية لا قاع لها ولا حدود، إذا ما أطلقت العنان لخيالك يسبح في الوجود بلا عقيدة تضبطه، ولا إيمان بالخالق القادر تلوذ به من ذلك كله وأنت واثق بأنه هو وحده القادر على حمايتك منها ومن كل وحشة وكرب في ظلمات البر والبحر الغامضة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣- ٦٤].

وفي هذا الوجود الغريب، تلازمك الوحشة الكبرى ابتداءً من حقيقة وجودك وانتهاءً بحتمية نهايتك، ومآلات ما بعد الدنيا، مرورًا بالزمان والمكان وحقيقتهما المرعبة، ستجد نفسك معلقًا في عالم متأرجح لا قرار له ولا استقرار، تأمل في وجودك وذاتك وصورتك، أأنت أنت؟ ولم أنت أنت؟، ولم تكن هو أو هي؟ ولم أنت بهذه الصورة والشكل واللون، ولِمَ لَم يكن غيرك وبصورة أخرى أيضًا؟ من الذي قرر، واختار تصميم جسمك بهذا الشكل؟ كيف تحددت مناطق الشعر بالجسم بخط قلم؟! شعر الرمش! شعر الجفن! شعر الرأس! شعر الوجه! إنها مرسومة بأدق الحدود وأصح الأماكن! الرأس في أعلى منطقة من الجسم لإبعاده عن صدمات الأرض وأخطارها، والخصية في أكثر الأماكن أمانًا وسترًا؛ لأنها عورة! والثدي محمي بين اليدين من الأمام تحت مراقبة العين مباشرة! إنك تمشي على رجلين، وليس على أربع ولا تزحف؟ قرار من هذا؟ تصميم من هذا؟ تنفيذ من هذا؟ وإذا كان هذا في جسمك المحدود فكيف بشأن العالم من حولك ومن ورائه هذا الكون الفسيح كله؟

ألا يستوقفك - يا ابن آدم - أنك قد جئت إلى هذا الوجود، هكذا من حيث لا تعرف ولا خيار ولا اختيار لك في خلقك، ثم وجدت نفسك هكذا، فعرفت فطريًّا أن هذا الذي يحويك، ويحيط بك هو الكون، فأصبح في عرفك كونًا، وتحسست الوجود من حولك فأصبح في خيالك وجودًا، وقصرت عن معرفة ما وراءه فأسميته عدمًا، وقد يكون كذلك وقد لا يكون، وتخيلت أنك قد أحطت بتصوراتك وخيالاتك وما بعد خيالاتك بالوجود كله، فأصبحت تتخيل وترسم وتقرر وتوجد وتعدم وتنفي وتثبت على هواك! كل هذا وأنت لم تجد حلًّا لبعوضة تهاجمك، لا بل لفيروس لا تراه ولا

بالمجهر العادي؛ فتك ببني الإنسان دونما حماية مطلقة منه، أيكون هذا كله من فراغ؟ أيحدث هذا كله بلا شأن عظيم يقف خلفه؟! حقًا إن الإنسان ظلوم جهول، فلا الوجود الفسيح محدود بحدود ما يتخيله هذا الإنسان الضعيف بخياله الضيق، فضلًا على ما يدركه من إدراك محدود جدًّا، ولا الوجود مقصور على وجودنا بما نعلمه وما لا نعلمه؛ لأن الذي أوجد هذا الوجود الذي لا نحيط به، لن يستعصي عليه أبدًا أن يوجد وجودًا آخر بل (وجودات) أخر[1]! أليس هو الذي على كل شيء قدير!

*****

هل نحن أمام وجود أم وجودات؟!

يا ترى! هل حدود الوجود الحقيقية - إن كان له حدود - هي تلك المرسومة في خيالي وخيالك؟ قطعًا لا! إذ يستحيل أن تضع حدودًا لوجود يستحيل أن تستوعبه، وهل هو وجود واحد هذا الذي نحن فيه، أم أن هناك (وجودات) لا نعلمها بعده، ألا يمكن أن يكون هناك كون آخر وبصورة، بل بصور أخرى؟ وبقوانين أخرى، ولِمَ لا تكون أكوان وأكوان؟ ولِمَ يكون عددها محدودًا؟ لقد قدرنا عدد المجرات في وجودنا هذا بما يزيد على مئة مليار مجرة! ما الذي يمنع أن يكون هناك مئة مليار وجود - فرضًا - وفي كل وجود مثل ما في وجودنا أو أكثر من المخلوقات؟ وهل هناك شيء يجمع بين هذه الأكوان لتصبح في وحدة ما تشبه جمع الكون المعروف للموجودات والأجرام؟ وهل لهذه الوحدة من حد أو عدد؟ لا يملك عقل مخلوق مهما بلغ علمه وذكاؤه أن يحسم أمرًا كهذا فائق التصور، والفرق بين المؤمن السعيد بإيمانه بالخالق، والملحد الشقي بإنكاره له، هو أن الأول يعلم حافة مساحة الإدراك البشري، ويقف عند حد معين لكل شيء يتصوره أو لا يتصوره مهما كبر، ويسلم الباقي لله الخالق بلا حدود ولا قيود، ليقينه بأن كل كبير في هذا الوجود هناك ما هو أكبر منه حتى يصل إلى الخالق الأكبر الذي لا أكبر

(١) ظهرت فكرة (الأكوان المتعددة) كقصة خيال علمي عام ١٩٧٣م وهي باختصار تنظر إلى الزمن كأنه نهر مستمر في جريانه ويحمل فقاقيع هوائية متعددة كل فقاعة تمثل كونًا منفصلًا ظهر من العدم على هيئة نقطة من الطاقة: (رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٩٦).

منه، الخالق لكل شيء، فهو بهذا التصور المنسجم مع الوجود والفطرية سيصبح ويمسي على بصيرة في الوجود لا يضل ولا يشقى، أما الملحد فيضطرب دائمًا لترنحه على حافة هاوية المعرفة البشرية الوهمية التي لا يملك إدراكها، ولا يطمئن لما وراءها ولا بدايتها ولا نهايتها، فهو تائه في المعيشة الضنك وحياة الشقاء واليأس من المجهول.

لنترك افتراض الوجودات اللانهائية، ولنرجع إلى تأمل وجودنا المألوف، ولننطلق من عالمنا الأرضي المعروف، الذي منه فقط نستطيع معرفة ما حولنا بالنسبة إلى كوكبنا زمانًا ومكانًا ووجودًا، فهل فكرنا يومًا في بعض غرائبه التي ألفناها لتكرارها، ولو فكرنا فيها لاكتشفنا أننا أمام أمور تستوجب التوقف والتأمل، لا بد أن تكون سمعت بالجاذبية وقوانينها مثلًا، وهي تلك القوة الغامضة التي تجذب الكتل الصغرى نحو الكبرى، إنها ناموس من نواميس هذا الوجود العجيب، هكذا اقتضت إرادة الخالق، ولو أرادها غير ذلك، لكانت غير ذلك، أليس الذي جعل الأشياء الصغيرة تنجذب للداخل نحو مركز الأكبر منها، قادرًا على أن يخلقها تصعد للخارج نحو حافة الأصغر مثلًا؟ بلى، والله إنه على كل شيء قدير.

تأمل أيضًا ميزان الطبيعة والاعتدال في حياتك وبالنسبة إلى من حولك، ترى أن وضعك الطبيعي هو أن تعيش على هذا الماء، وتتنفس هذا الأكسجين، وتتحرك بحرية في هذا الفراغ تحت ضغط جوي محدد، وتتغذى على ما تشتهيه النفس من طاقة وغذاء في معدل حرارة معين، ففي ميزانك أنت يكون هذا معيار الحياة الطبيعية، فتَعدّ أي اختلاف أو تبدل عن هذه البيئة جحيمًا، وهو في الحقيقة قد يكون جحيمًا بالنسبة إليك وفق معاييرك، ولكنه لخلق آخر لا تعلمه أنت ولا أنا ولا غيرنا من الخلق، لربما أصبح جحيمك هذا نعيمًا لها، ونعيمك هذا جحيمًا لها، ألا ترى نوعًا من السمك، يعيش في قاع المحيطات بضغط يعادل آلاف أضعاف الضغط الذي تعيش فيه أنت، ولو خرجت للسطح لماتت من اختلاف البيئة واضطراب الضغط، كما تموت أنت لو نزلت إلى أعماق البحار دون حماية تقنية؟!

ولك أن تطبق هذه القاعدة المنطقية المطردة على حالات الكواكب وحتى النجوم، لتعلم أنه لا غرابة أن يصلك أخبار عن الجنة والنار وحيًا من عند الله فقط، وتسمع

عن وصفهما بما لا يتطابق وقوانين الوجود في الدنيا، ولهذا كان من المنطقي جدًّا أن يصلك خبرهما دون إرفاق (فيلم وثائقي!) يعبر عن الأوضاع والأشكال والألوان هناك، وكيف يكون ذلك كذلك وهما لا يخضعان لقوانين الدنيا كلها ونواميسها، وإنما جاءتك صفات النعيم المقيم المطلق بالجنة، والعذاب الأليم في النار على وجه التقريب للتصور البشري في الدنيا، وترك ذلك لظرفه الحقيقي الذي سيواجهه كل إنسان حتى لو لم تتصوره أنت، ولن تعلم توقيته الذي لا يعلمه ولا يدركه مخلوق مطلقًا، لكن لكي تريح نفسك، وتطمئن وتنعم باليقين سلم هذا الأمر للخالق، واستسلم له مؤمنًا، وصدق المرسلين بالوحي، ويكفيك أمانًا أنك تؤمن بالرب ذي الصفات التي لا يعجزه معها شيء في الدنيا ولا في الآخرة.

وهكذا كلما تعمقت في هذا التأمل الذاتي، أدركت أنك فعلًا غريب في عالم الغرائب الموحشة إذا ما حرم الإنسان نفسه مطمئنات الوحي، وبلاسم النبوة الحاضنة للنفوس الشاردة والمهدئة للأرواح الخائفة، وفق إرادة خالقها الذي بيده وحده أقدار الوحشة والأمان منها، فيمضي حياته في الدنيا متنقلًا بين الوحشة والأمان، بين السراء والضراء، فيتحقق له الحد الأدنى من الأمن النسبي، لكنه يتطلع إلى نهاية آمنة يستقر بها الأمر، غير هذا المستقر المتقلب في الحياة الدنيا، أي لا بد من آخرة وحياة أخرى، وجولة أكبر وأعظم للخلق بعد هذه الدنيا، ولا بد من حساب وعقاب لإضفاء توازن عدل بين سلبيات الحياة الفانية وإيجابياتها، وهناك فقط تكون الطمأنينة والأمان الكامل، حيث جنات الخلد، أو يكون الخوف والعذاب، حيث نار السموم، للمعاند المتكبر.

*****

المعلوم مرغوب والمجهول مرعوب

يا أسفى على وقت وعمر يضيعه المجادل بغير علم، وهو يحاول عبثًا معرفة عوالم الغيب التي لم يخلق أصلًا لمعرفتها دون استئناس بالوحي! والنتيجة محسومة مسبقًا بأنه لن يعلم من غيب الوجود الماضي قبل وجود الإنسان، ولا المستقبلي بعده شيئًا، ولن

يعلم من غيب الآخرة شيئًا، بل حتى الحاضر ليس كله شهادة يدركها أو يحسها أو يعقلها، فهناك الكثير من عالم الغيب الذي لا سبيل لوصول الإنسان إليه، ليس للإنسان من ذلك كله إلا ما أخبره عنه الوحي، ليعلم إن كنت تريد أن يعلم بصدق، أنه لا خيار له إلا بتصديق خبر الوحي كي ينجو من أهوال مستقبل لا يملك فيه شيئًا، وإلا عرض نفسه لمغامرة وجودية خطيرة جدًّا لا يمكن استدراكها، عندما يُسدل الستار على مسرح حياة كانت الفرصة الوحيدة للإنسان أن يتزود منها لما بعدها، هكذا كان أمر الله وإرادته في ابتلاء عباده.

لن يتحقق الأمن النفسي والتوازن الفكري والارتياح التعبدي في الدنيا وما بعدها إلا بالإيمان بهذه الحقيقة الكبرى، وإن جادل فيها بعض المعاندين وهي أنه من دون نور الوحي لن يصل المرء إلى شيء يزيل عنه رعب المجهول، ويفسر له هذا الغموض الوجودي، ويكسر حاجب السرية عن الغيب مهما أشغل نفسه بأمر الوجود والعدم؛ لأن الكون كله أكبر منه حجمًا وقدرًا ووجودًا، قال الله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧] هذا الوجود المجهول المكفهر الموحش تمامًا يصبح معلومًا آمنًا مطمئنًا مبشرًا واعدًا بفضل من أنزل على قلوبنا نور الإيمان، ووعدنا بكشف كل سر أو غموض واجهنا في حياتنا الدنيا، وفي المقابل يصبح هذا الوجود ظلماتٍ ورعبًا ووحشة ليس بعدها وحشة على من فقد الإيمان، ولا عبرة في عناده ومكابرته، قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

إن أخطر ما في هذا الأمر أنه لا فرصة بعد هذه الفرصة مطلقًا، وأن الوجود كله ملك الله المهيمن على كل شيء، فالوجود مغلق علينا ونحن جزء من هيمنة الخالق عليه، فإما أن تسلك طريق النجاة، فتنجو منه إليه سبحانه، أو ستحيط بك العواقب بغض النظر عما تعتقده بها، فتهلك ولا مفر منه إلا إليه، فاختر لنفسك ما تشاء ما دمت في الفسحة، الطريق أمامك ممهد، تجول في بستان الفكر، واقطف من أزهاره، ولا تكترث بأشواكه، فلن يعترضك أحد في هذا الطريق، تتبع أقوال من سبقوك ومن عاصروك،

وحتى من سيخلفونك في المستقبل، لن يحجر أحد على فكرك، ولن يمنعك من التأمل والتدبر، ولكن اعلم أنه من دون نور الوحي لا بد لك من أن تصطدم بالحقيقة الكبرى كما حدث مع كل من كانوا قبلك، وهي أنك أنت الإنسان عاجز قاصر أمام جبار الكون وخالق الوجود، بعيدًا عن كل مكابرة المكابرة، أنت فقير، أنت تموت، أنت ضعيف، فلو أن شوكة صغيرة نفذت بين لحمك وظفرك لملأت الدنيا صراخًا للتخلص منها ومن آلامها، ولنسيت كل جدال وحوار على الوجود ولاقتصر جل همك على استخرج تلك الشوكة فحسب، فأنى لك أن تسير وحدك في طريقك الوجود الطويل بين ظلمات الدنيا الفكرية بلا هدايةٍ وإيمانٍ من خالقها.

إن حظنا وحظك من هذا الوجود مجرد فرصة خاطفة كلمح بالبصر، ما دمت تملك عقلًا طريًّا في جمجمتك، وقلبًا ينبض بالدم متدفقًا في جسم تنتظره الدود اليوم أو غدًا لا مفر ولا محيص عن ذلك، نذكرك بفرصة قصيرة طالما ذكرك بها المذكرون، تتذكرها الآن وأنت تقرأ هذه السطور، فاستثمرها بترتيب أوضاعك المستقبلية الكبرى فيما بعد، فإنه من الحمق أن تموت دون أن تستأنس برعاية الباقي لك من قدرك الوجودي هناك لتنعم بذلك بعد موتك، وأي وحشة وخسارة تلك الحياة التي يحياها الكافر المكابر، الذي يمضي عمره القصير معتقدًا أن نهايته بالموت؟ وقد جاءته النذر تترى، حتى إذا ما واجه الحقيقة الكبرى بعد الموت اضطرب وانهار وتمنى حيث لا ينفعه الندم، عليه ألا يلوم سوى نفسه، فهو الذي تجاهل متعمدًا هذا التحذير الصريح المباشر من الله القدير علينا: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

كل صور الخوف، وأصناف الرعب والوحشة سوف تتكدس حولك في الدنيا وأنت في طريقك القصير لما بعد الموت إذا ما فقدت أمان الإيمان بالخالق وطمأنينة العلم بربوبيته وألوهيته، وأنه وحده الذي قدر كل شيء، والذي أوجدك من العدم هو وحده الذي سيرسم لك طريق الأمان والنجاة في مستقبلك، وكما آمنت بوجودك هذا وأنت لم تصنعه، فالواجب أن تسلك طريق النجاة الذي رسمه لك من صنعه وهو يعلم ما لا تعلم من حالك المستقبلي الذي بيده، إنك تسوحش، وتخاف مما هو أقل من ذلك

كالسباع والأمراض والحرائق والبراكين والزلازل والفيضانات والحروب، بل وحتى من الحشرات، فأنت في حاجة دائمًا إلى جرعة أمان خاصة في الدنيا، تكفيك هم الرعب قل أو كثر، فآمن بالله! ويلك آمن إن وعد الله حق، وتوكل عليه وسلمه الأمر، وخذ بأسبابه الممكنة، وبذلك تتجاوز الخطر، وتنام قرير العين هانئها، مستمتعًا بالطمأنينة الأبدية بالإيمان بالخالق في هذه الحياة غير مكترث بقصرها أو طولها، منتظرًا للقاء الله بحياة سعيدة أبدية، افعل ذلك الآن؛ كي تحيا مبتسمًا، وتموت مبتسمًا: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] هذه ورب السماء هي الراحة الأبدية المنشودة، وبهذا اليقين ستنظر إلى الموت على أنه مجرد نقلة مؤقتة من حال إلى حال أفضل منها، وأنه محطة توقف عابرة على طريق سعادة طويل، وليس هو النهاية الأبدية كما يعتقد ذلك الدهريون، بل هو للمؤمن نقطة تحول ونقلة نوعية إلى الراحة، لا مجرد حزن على فراق أبدي.

الرعب في هذا الوجود لا يقتصر على الأخطار الطبيعية في الدنيا، فهناك وحشة أكبر من موحشات الدنيا الظاهرة، هناك وحشة تتعلق بالوجود كله وبعالم الآخرة أيضًا، ولا علاج له إلا بالإيمان فقط، وهناك وحشة الأوساط الزمانية، بين ماضٍ مرعب، تداويه بالحسرة والذكريات، وحاضرٍ متوجس، لا تدري ماذا يحدث لك فيه، ومستقبل مروع، لا تدري أين تؤول بك مآلاته، ليس فقط في حياتك بل أهم من ذلك بعد مماتك، وهناك وحشة الأوساط المكانية وعن تحديد موقعك في الوجود، وأين المفر من هذه الموحشات الكبرى إلى الطمأنينة إذا لم يكن الوحي دليلًا ومنقذًا ومبشرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا.

إذا لم نتدثر بالوحي، ونتزمل، ونلوذ به، ونلجأ إلى خالق كل شيء سبحانه، فستبقى هذه الوحشات المرعبة، وحشة الزمان، ووحشة المكان، ووحشة الوجود والموت وما بعده، كابوسًا مروعًا في الدنيا يطاردنا وذرياتنا من بعدنا كما طارد آباءنا من قبلنا، كلما تذكرنا أنفسنا وتصورنا مقامها في الوجود، فإلى أين نحن ذاهبون حقًّا؟ وأين المفر من ذلك؟ إن لم يكن: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة: ١٢].

*****

وحشات مخيفة!

لأننا لا نملك من أدوات السلامة والنجاة من الأخطار إلا ما يزودنا به الصانع للوجود والأخطار، فمن الطبيعي أن نعيش هذا الرعب عندما نفقد الاتصال به، تأمل أسرار حياتك وغموضها، واسأل نفسك: هل أنت في مأمن مما فيها؟ وأنت لا تملك لنفسك تحديد زمانها ولا مكانها ولا حياتها ولا موتها ولا وجودها، كل ما في الأمر أنك وجدت نفسك حيًّا دون خيار أو اختيار، تؤمن إيمانًا قطعيًّا أن كل ذلك بيد قوة عظيمة لا قدرة لك عليها إطلاقًا! ألا تدرك وأنت تحيا وتسعى في الأرض، أنك عندما تبتعد عن ضمان أمان الوحي، ستجد نفسك متخبطًا في فوضى ظلمات تأويل مفهوم الزمان والمكان والوجود بلا نتيجة، وستنقلب هذه المفاهيم إلى وحشات مهلكة (وحشة الزمان ووحشة المكان ووحشة الوجود)، وأنه من دون نور الوحي ستنطلي عليك خدعة المكان الآمن وأنت في حقيقة أمرك بلا مكان، ووهم الزمان الآمن وأنت في الدنيا تعيش لحظات مؤقتة من الأنس والصحة والطمأنينة المؤقتة مع أهل ومال وولد، سيتبعها بلا شك موت محتوم وفقدان وحزن أنت الآن على يقين منه، لكنك لم تستحضر لحظته قبل وقوعها، فكل ضاحكٍ منا اليوم إما باكيًا على حبيبه، أو سيبكيه حبيبه، من والد ووالدة، وأخ وأخت، وزوجه وذرية وأقارب وأصدقاء، اسرح وامرح والهُ وجدف ما استطعت بين الجد والهزل في حياتك الدنيا، فأنت غدًا إما معزيًا أو مُعزى به، أو معزى عنه! فكل نفس ذائقة الموت.

نحن على موعد مؤكد مع الموت (المرعب) الذي يفر منه كل حي من الخلق، بينما لم يفلت منه مخلوق واحد على الإطلاق، سيضرب الموت على وجودك وزمانك ومكانك لينقلك إلى عالم آخر، إنه الموت الذي رغمت له أنوف المؤمنين والكافرين على حد سواء، إنه القدر المحتوم، سواء جاء فجأة أو سبقه مرض أو شيخوخة أو حادث: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] إنه الموت وكفى، لحظة الاختفاء التام من الوجود المألوف، وإغلاق ملف الابتلاءات الدنيوية وسجلاتها وانتظار النتيجة وتسلّم الجزاء في الآخرة.

هذا الإجماع على تصديق الناس بالموت على أنه نهاية عالم الدنيا القصيرة، يذكرنا بنعمة الإيمان وسعادة المؤمنين، الآملين في الحياة الطويلة الباقية، مقارنة بشقاء من لا يؤمن بالحياة بعد الموت، ولولا ناموس عمارة الأرض لما وجد في الدنيا شيء ذو بال، سوى ما يؤمن مصير المؤمن بعد مماته ليحيا حياة أبدية، حقًّا ما أرخص هذه الحياة الفانية! إنها كما قال النبي ﷺ: «**لو كانت تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء**»[1]، فمتى يدرك الإنسان أنها مجرد طيف زائل، وغمامة منقشعة، وسراب عابر، وأن أعظم وأهم ما فيها، هو ما ندخره للحياة الباقية بعدها من صدق إيمان وعمل صالح، إنها حقًّا متاع الغرور، ولقد أخبرنا القرآن عنها، ووصفها أبلغ وصف، قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

*****

أولًا: وحشة الزمان

يقول الفليسلوف الألماني (إيموائيل كانت): «إن عالم الزمان والمكان الذي ينطبق عليه العلم ليس هو (الحقيقة) الواقعية بل هو (عالم الظاهر)»[2]، والمقصود بذلك أننا نتعامل مع زمان وهمي يختلف عن حقيقة الزمان الفعلي، وهناك نتيجة عجيبة توصل إليها (أينشتاين) بعد دراسة عميقة للزمان، وهي أن مقدار الزمان مقدار متغير في الكون، وأنه لا يوجد زمان واحد للكون كله ممتد من مبتدأ الوجود إلى الآن وإنما يوجد عديد من (الأزمان) وكلها مقادير متغيرة لا يمكن نسبتها إلى بعضها إلا بالرجوع إلى أنظمتها وعلاقتها ببعضها، وهذا مستحيل لأن أسرع المواصلات الكونية (الضوء)

---

(١) الحديث رواه الترمذي (٨٥٦) عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**».

(٢) الدين والعقل الحديث ولتر ستيس ترجمة إمام إمام (مرجع سابق) ص٢٥٥.

[1] لا يستطيع أن يحقق تواقتًا بين أطرافه[2]، وكيف يتحقق ذلك والحديث عن قطر للكون لا يقل طوله عن ١٦ مليار سنة ضوئية! قد تكون هذه الحقيقة صادمة نوعًا ما للإنسان الغافل والغارق في (روتين) يومه وليلته المتكرر بعفوية، ولكن تعالَ نجرب معًا الدخول في بعض التفاصيل الزمانية لنرى مدى مصداقية العبارة التي صدرت من الفيلسوف (كانت) الذي يوصف بأنه (شيخ الفلاسفة)، ولنبدأ من أول درجات السلم المعرفي، أليس الزمان عرفًا نسبيًّا تعارف عليه الناس، فأصبح زمانًا! أنت تسمع وتردد لفظ الزمان، فمن أخبرك به؟ هل تذكر أول لحظة في حياتك تسلّمت مصطلح الزمان صوتًا يطرق أسماعك، ففهمته واستوعبته؟ وما تصوراتك عنه بعد أن نضج عقلك، وما هو الزمان أصلًا؟ وهل للزمان وجود موضوعي؟ ومتى نطق الإنسان لفظ الزمان واستوعبه؟ وهل نحن أمام زمان واحد أم أزمنة لا نهائية؟

لو تأملنا هذا المصطلح ومدلولاته الغريبة! لتوصلنا إلى أن الزمان المعروف لا معنى له إلا بالحركة! وأن للزمان ثلاثة أبعاد رئيسة، هي الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا ليس غريبًا ولا جديدًا على مسامعك، بل الغريب هو أن الزمان الماضي ليس له وجود الآن؛ لأنه قد انتهى، والمستقبل القادم ليس له وجود؛ لأنه لم يأتِ بعد، والحاضر لحظة زمنية متناهية في الصغر هاربة من الحاضر، ومع ذلك فهي أيضًا منقسمة بين الماضي المفقود والمستقبل الموعود، لحظات الحاضر لا تكاد تميزها أو تشير إليها، تخيل معي أي لحظة من هذه اللحظات، ولنقسِمها زمانيًّا بأصغر وحدات قياس الزمن المتعارف عليها وهي (الثانية)، ولنجزئ الثانية إلى أقصى ما يمكن تجزأته من وحدات صغيرة، هل أدركت معي أنك ستصل إلى أجزاء زمانية غير محدودة قد يتجاوز عددها (التريلونات) على أقل تقدير يمكن تصوره، ولو رتبت هذه الأجزاء اللامحدودة من الثانية صفًّا على خط الزمان، فإنك ستقول بلا أدنى تردد: إن الجزء الأوسط منها هو الذي يمثل اللحظة الحاضرة من الزمن وإن تريلونات الأجزاء من الثانية قبل الوسط محسوبة من الماضي، فهي من الماضي الذاهب أصلًا بلا رجعة، وتريلونات الأجزاء التي بعده محسوبة هي

(١) تقدر سرعة الضوء بما يقارب ٣٠٠,٠٠٠ كم في الثانية.

(٢) أينشتاين والنسبية مصطفى محمود الأعمال الكاملة للدكتور مصطفى محمود دار أخبار اليوم قطاع الثقافة ص٤٧.

الأخرى على المستقبل المنتظر فلم تعد حاضرًا أيضًا، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل حتى ما يمكن أن تسميه وسط الأجزاء هذه كلها بعد تقسيهما، يمكن تقسيمه أيضًا، ولو من الناحية النظرية في آخر المطاف! وفي كل مرة تجد نفسك أمام جزأين: ماضٍ ومستقبل ونقطة حاضر فرضية لقصرها جدًّا جدًّا، لا تتوقف هذه السلسلة عند حد معين، إلى أن تصل إلى فرضية اللاوجود للحاضر أيضًا، فأين ذهب الزمان كله؟!

هذه ليست هرطقة ولا جدلية عقيمة، هذه هي الحقيقة عندما تتأمل بعمق حقيقة الزمن الموحش حولك معتمدًا على ذاتك الضعيفة، وغفلتك عن هذه التفاصيل لا ينفي وجودها كما اتفقنا بأنك لست مرجعًا معرفيًّا لإثبات المجهول أو نفيه، والنتيجة هي أن الزمن من الناحية الموضوعية غير ممكن الإشارة إليه إلا نسبيًّا وعرفيًّا، وإنما وجوده الحقيقي في عالم (الأبد) الذي لا بداية ولا نهاية له فقط، وهنا يتضح المغزى العميق من منطوق الوحي الذي يصف الدنيا بزمانها الزائل بأنها لعب ولهو، وأنها متاع الغرور، وأن الآخرة في أبديتها الزمنية هي الحيوان (الحياة) لو كانوا يعلمون، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

أما البحث في الزمن الأول - أي زمن ما قبل الخلق - فلا معنى له منطقيًّا، ليس فقط لأن الزمن جزء من الوجود الذي لم يوجد بعد حينذاك، ولكن أيضًا لأنه مع العدم لا توجد حركة مما يستحيل وجود زمن مع عدمها! وهنا نواجه مشكلة وصف حال ما قبل الزمن وما بعد الزمن، وحلها يكمن في ضرورة التفريق بين (الأزل) وهو ما قبل الزمن، و(الأبد) وهو ما بعد الزمن، وهما معياران زمانيان خاصان لا ماضي ولا مستقبل لهما، ولا ينقسمان إلى أجزاء، لكنها يشكلان مع زمننا المعروف (السلسلة السرمدية) التي هي الامتداد المفترض بين الأزل والأبد مرورًا بالزمن العرفي، والأزل والأبد لا يمكن قياسهما لعدم وجود بداية أو نهاية لهما، حيث إن إضافة السنين إلى الأزل لا توصل إلى الأبد مطلقًا؛ لاختلاف وحدات القياس بينها، وعليه فإن السرمدية عالم أعظم من أن يستوعبها الزمن المعروف عند الإنسان، وخارج مدارك البشر، وكل ذلك من خلق الله العظيم عظمة فوق ذلك، وقد أشار القرآن إلى الأزلية والأبدية في وصف الله تعالى بأنه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ﴾ [الحديد: ٣] استمتع بجمال فهم هذه الآية العظيمة على

ضوء سعة الأفق بعيدًا عن مفاهيم الزمن الدنيوي المعروف؛ لتدرك النعيم الذي قدمه لنا الوحي من الله تعالى.

يقول الفيسلوف الروماني (بويثوس)[1] مفرقًا بين ما وصفها بحياة الله (السرمدية)، وما يدوم إلى الأبد: «ليست الحياة السرمدية بعدد السنوات الأكثر، ولكنها شيء يجعل فكرة السنة بكاملها وأي مقياس آخر من مقاييس الزمن فكرة باطلة لا معنى لها، وأن الأزل هو امتلاك الحياة التي لا تنتهي امتلاكًا كاملًا تامًّا مرة واحدة»[2]، أما القرآن الكريم فقد حسمها في ثلاث كلمات هي: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ [النمل: ٩١] ولما تطرق (ابن سينا) للقدم، وحاول تفسيره، بأن لجأ إلى تقسيم القديم إلى قسمين، قديم بالقياس، وهو شيء زمانه في الماضي أكثر من زمان شيء آخر جاء بعده، فهو قديم بالقياس، والثاني القدم المطلق، وهو الذي ليس له مبتدأ ولا منتهى زماني، وهو الله ﷻ، والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو: ما مدى حاجة (ابن سينا) إلى هذا التكلف، وهو الذي يقرأ كما قرأ غيره من المسلمين هذه الآية الكريمة التي جعلت الزمان بجميع صوره والمكان أينما كان والوجود أينما كان موجودًا، كلها أقزام متصاغرة جدًّا أمام عظمة خالقها القائل: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [الحديد: ٣] خاصة أن هذه الآية لا يمكن أن تخضع لمقاييس الزمان الدنيوي النسبي المرتبط بالحركة، التي يستحيل تطبيقها على الأزل والأبد المشمولين في الآية، ومسألة القدم والحدوث غير قادحة في الإيمان؛ لأن مجرد الإيمان بحدوث العالم يعني الإيمان بوجود من أوجده[3].

قد لا يحتاج الأمر إلى مزيد من التفصيل في تعقيدات فلسفية ومنطقية أكثر وأعمق من ذلك عن الزمن، لربما نجد الراحة الذهنية في التعامل مع الزمان العرفي البريء المعروف لدينا نحن سكان سطح الأرض دون أن نرتفع عنه للفضاء أو ننخفض تحته في القبور، فيضيع منا زماننا، ولا نحتاج إلى تفاصيله الموحشة، ولسنا بصدد إنكار الزمن العرفي الذي يستند إليه الوجود والعدم، والحياة مستقرة على مفاهيمه الشكلية التي

(١) آنيسيوس بويثوس Boethos (٤٨٠-٥٢٤م) فيلسوف روماني نبيل اشتهر بفن النحت وكان مقربًا من ملك إيطاليا مدة طويلة انتهت بإعدامه بالخيانة دون محاكمة: (Enciclopedia).

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٨٢.

(٣) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٦٤، ٨٣، ١٠٧.

أقرتها الأديان السماوية أيضًا، مع عدم الخلط بينه وبين الأزل والأبد لعدم خضوعهما لمعاييره، لكن الأمر مجرد تفكيك للزمن ليتضح للمتبصر المتعمق كم هو موحش متشعب إلى متاهات لا تنتهي، وكلما تعمقت في أسرار هذا الزمن العجيب، تضاعفت الوحشة منه، واتجهت بفطرتك تبحث عن مخارج منها نحو الطمأنينة، التي هي مطلب كل نفس منفوسة تحتاج إلى مثل هذه الجرعة الشافية، ويبقى مردنا إلى الله البصير بالعباد: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

ومع هذا، فإن هذا الزمان الذي يصعب تصوره على الرغم من اختلاف تصوراتنا عنه يبقى موجودًا وجودًا ظاهريًّا اعتباريًّا في النفس على الأقل، بحيث تكتفي طبيعة البشر بتناوله مبسطًا بأبعاده الثلاثة، الانتباه لما يتحرك حولنا وهو الحاضر، والتذكر بما مضى من حركات وتغيرات من قبل وهو الماضي، والتوقع أو الترقب لما سيحدث من حركات وهو المستقبل[1]، دون إشغال العقل بما يخبئه الزمان في داخله.

*****

الحركة و الزمان

الحركة من أعظم معجزات هذا الوجود، فالوجود كله يتحرك، قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] فهذه الكتل الهائلة من كواكب ونجوم وأجرام سماوية تتحرك بانتظام دقيق لا يتقدم ولا يتأخر، بل نضبط أدق ساعاتنا على حركة الأجرام لدقتها، إنها تؤكد عظمة وقوة من أوجدها وحركها بهذا النظام، والحركة روح الزمن الدنيوي وسر وجوده، والزمن يوجد حيث توجد الحركة، وينتهي حيث تنتهي، ومن دون الحركة ينتهي الزمان العرفي تمامًا، بل سيكون في الوجود (سكون) مخيف ومرعب جدًّا، ما بين (أزل) لا نتذكره و(أبد) لا نعلمه إلا بما علمنا عنهما ربنا فقط، وهكذا يكون الزمان موجودًا في الحركة،

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٢٥١.

والحركة تكون مع المتحركين، والمتحركون عادة ما يكونون متآكلين متغيرين فانين، وحيث إن الله تعالى قد خلق هذا الزمان والحركة المسببة له، فإنه يتعالى عنهما؛ لأن قوانين الزمان المخلوق لا تنطبق على العظيم الخالق، فهو (الكبير المتعال)، وكل أجزاء الزمان ومكوناته تكون دونه بكثير، فهو لا ينتظر من الزمان مستقبلًا كما ننتظره نحن ولا يفوته ماضٍ كما يفوتنا، فقد أحاط علمًا بالزمان المخلوق.

وهنا وقفة مع عجائب ألفاظ القرآن، حين يحدثنا عن المستقبل بصيغة الماضي؟ تأمل معي: قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾! [الزمر: ٦٨] هذا سيكون يوم القيامة، ولم تأتِ القيامة بعد! وتأمل أيضًا: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦] ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾! [غافر: ٤٩] ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الكهف: ٤٩] ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾! [الزمر: ٧١] وكلها أحداث لم تقع في عالم زماننا العرفي، ولكن علم الله المحيط بكل شيء أحاط بها في علمه المطلق، وكونها حقيقة الحقائق المتحققة الوقوع بصدق الخبر المطلق عن الله أصبحت حوادث، وكأنها واقعة قبل أن تقع فعلًا، إنها لا تخضع أبدًا لعالمنا الزماني المألوف في الدنيا، فلا ماضيَ ولا حاضر ولا مستقبل هناك، بل هو علم يتعالى عن ذلك كله إنه علم الله المطلق الذي لا يحويه زمان عرفي ولا مكان دنيوي وفق مفاهيم الناس وقدراتهم، وكل ذلك مكنوز في لفظ صفة (العليم) سبحانه.

وحيث إننا لا نعلم عن الله إلا ما أخبرنا به عن نفسه، فإننا نحذَر كل الحذر أن ننزلق إلى الخوض فيما لا نعلم من صفاته ﷻ، فلم يخبرنا الوحي عن حركة له ولا سكون، ولا نعرف أي زمان خارج عن زماننا هذا، لكننا نواجه ذلك كله بالتسليم المطلق، مؤكدين أن لله صفات الكمال المطلق في كل شيء أمام عجزنا التام عن النفوذ إلى ما وراء هذه الحواجز المعرفية الرهيبة، وكيف ندرك ذلك، وقد حيرنا اختلاف الزمان المعلوم في دنيانا باختلاف الحركات المسببة له في عالمنا؟ يقول (أينشتاين): «كل نظام حركي له تقويم زمني خاص به»، لقد أوجدت الحركة بالنسبة إلى الأرض تقويمًا زمانيًّا يختلف تمامًا عن تقويم آخر قد تجده في كوكب المشتري مثلًا، فاليوم وفق التقويم الأرضي قد لا يصل إلى واحد في المئة من يوم كوكب آخر، لا يبعد عنه سوى مئات الملايين من

الأميال، فكيف سيكون الأمر عندما نقيس المسافات بالسنوات الضوئية؟[1]، بل كيف سيكون الزمان فيما هو خارج عن عوالمنا المعروفة؟!

ومن هنا ندرك أن اختلاف أيام البعث ناتج من اختلاف عوالم الحركة في كل حين، حيث سننتقل بعد الدنيا إلى عوالم أخرى وبحركات أخرى لا نعلم عن ماهيتها وكيفية حركتها ومن المتوقع جدًّا أن نواجه أيامًا أخرى قد تصل إلى ألف سنة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] أو ربما خمسين ألف سنة مما نعده أيضًا: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] أو غير ذلك مما لا يعلمه سوى العليم سبحانه.

لقد حار الفلاسفة، عندما تطرقوا لموضوع الزمن وأسراره، ووجدوه من أصعب أبواب المعرفة في الوجود؛ نظرًا لارتباط كل مخلوق به، وكان مما حيرهم الفرق بين الزمن الموضوعي، وهو الزمن الوجودي الذي نعرفه في تاريخنا وفي أثناء يقظتنا، وبين الزمن الداخلي الغريب الذي يعيشه النائم، فيدخل في عالم يراه في المنام، ويمضي معه عشرات السنين في مشاهد داخلية يعيشها الإنسان كما لو أنه في يقظته، وكل ذلك يحدث في لحظات نوم قد لا تتجاوز بضع دقائق! ألا ترى هذا الإنسان البسيط ينام ساعة، فيدخل في عالم من الاضطرابات والمقابلات والبيع والشراء والحرب والسلم والقتل والجروح والإنجاب والإعجاب والصغر والهرم والزواج والطلاق والسفر والحضر والمصائب والكوارث والخوف والأمن والموت والحياة، وكأنه عاش معها عشرات السنين، بينما هو في رؤى المنام خلال غفوة قد لا تتجاوز الساعة مثلًا، فما هو هذا الزمن التي جرت فيه تلك الوقائع وكأنها طبيعية؟ وكم من الأزمان الأخرى من شكله أو من غيره تبقى خافية علينا؟

لنعود إلى زماننا الموضوعي، ولنركز على الحركة المسببة له، فحيثما وجدت الحركة وجد معها نقطة الابتداء ونقطة الانتهاء، وهذا يعني أن هناك بداية لكل مخلوق يتحرك في هذا الكون، وستكون له نهاية لا محالة، فكل متحرك اليوم قد كان في ماضيه مهما طال ساكنًا، وكان هناك نقطة بداية لحركته، وهذا يعني أن له نقطة نهاية حتمية أيضًا، وأن

(١) السنة الضوئية الواحدة تعادل ٩,٣٣١,٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر. (٥,٨٣ ترليون ميل).

عجلة الزمان تدور للوصول إلى تلك النقطة، وحتى مع ربط الزمان بالحركة لا تستطيع الفكاك من الوحشة في نهاية المطاف الزماني، حيث إن الحركة هي الأخرى نسبية إلى ما هو ثابت نسبيًّا، حيث لا يوجد زمان مطلق، بل هو أمر نسبي إلى ما يتحرك في محيطك، ولا يستند إلا إلى عرف وصفي استقر فتطبع، ولو استقر غيره لتطبع مثله، فالضرورة التي وجدناها أصبحت واقعية بالعادة والعرف وليس الواقع ضرورة ابتداءً.

إن ارتباط الحركة بالزمن والزمان بالحركة هو الذي جعل العلماء يصفون الزمان بأنه البعد الرابع في تحديد المواقع، فأنت عندما تريد تحديد موقعك على السطح، سواء كنت في صحراء أو في عرض المحيط، فأنت تستخدم خطوط الطول والعرض لتحديد النقطة، بينما الطائرة في الفضاء تضيف بعدًا ثالثًا وهو الارتفاع، وحتى هذه الأبعاد الثلاثة لا تكفي؛ لأن الطائرة ليست ثابتة في الجو بل هي متحركة بحركة تتغير كل ثانية، فلا بد من إضافة بعد رابع، وهو الزمن حتى نعلم في أي الأوقات كانت الطائرة في تلك النقطة من السطح وعلى ذلك الارتفاع ومن هنا جاء مصطلح البعد الرابع، ويقصد به (الزمان) وهذا يعني وجود ارتباط وثيق ومستمر بين الزمان والمكان، حيث لا يمكن معرفة الزمان إلا عن طريق تتبع المكان والأحداث المتغيرة فيه.

*****

وحدات قياس الزمان

العرف هو الأساس في اختيار أسماء أدوات الزمن ووحداتها المتفرعة عنها والمستقر عليها مع الزمن، ولتوضيح ذلك دعنا نبحر في فضاء الخيال الماتع مرة أخرى، تعالَ نقلب أدوات الزمان التي بين يدينا اليوم، أليست (الثانية)[1] هي من أصغر وحدات القياس الزمنية في حياتنا؟ ومن مضاعفاتها تأتي الدقيقة ثم الساعة فاليوم والشهر والسنة والعقد والقرن والألفية، وهكذا! إنها مجرد وحدات عرفية استقرت عليها الحياة على سطح الأرض فقط، وحاول الإنسان القاطن على كوكب الأرض فهم

(١) قسمت الثانية إلى وحدات زمنية أصغر منها مثل ميكرو ثانية وهكذا.

الوجود زمانيًّا من خلال مقاييس الزمان الأرضي، تذكر أنك نشأت وفتحت عينيك، فوجدت أمامك حياة قد استقرت على أن الدقيقة ستون ثانية، والساعة ستون دقيقة، واليوم أربع وعشرون ساعة، والشهر ثلاثون يومًا، والسنة اثنا عشر شهرًا، ولو وجدت أرقامًا غير ذلك لأصبح لها المعنى الاعتباري نفسه عندك، وتطبعت معها كما تطبعت مع ما أنت عليه اليوم.

سيكون الأمر طبيعيًّا تمامًا لو وجدت الأمر قد استقر على أن وحدة الزمن شيء آخر غير الثانية وباسم آخر! لم لا؟! وأن الوحدة التي تليها غير الدقيقة، وهي منها مئة ضعف - مثلًا - وليس ستين ضعفًا كما هو الحال بين الثانية والدقيقة، وأن الوحدة الثالثة شيء آخر غير الساعة المعروفة، وهي من الوحدة السابقة ألف ضعف! وليس ستين كما هو الحال بين الدقيقة والساعة، وأن اليوم ستون وحدة بما يعادل الساعة أو حتى الساعة نفسها أو فقط ستة أضعاف بدلًا عن أربع وعشرين ساعة، وأن اليوم ليس يومًا بل اسم آخر أو حتى بالاسم نفسه والعشرة منه تكون الشهر، وليس بالضرورة الشهر بالاسم نفسه أيضًا، وكذا السنة أو ما يقوم مقامها من الاصطلاحات العرفية التي سنتفق أنها ذات مدلولات زمانية، كل ذلك ممكن أن يأتي بالزيادة أو النقصان على حد سواء، تأمل جيدًا ستجد أنه لا شيء يمنع ذلك، فإن الخالق الذي هيأ لهذه الأقدار أن تكون في الوجود، وتتموضع في الطبيعة لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء أن يقدر أقدارًا أخرى وبصفات أخرى وخلق آخر لا يعلمه سواه ﷻ، وقد تموضعت الوحدات الزمانية وفق الوضع الراهن المتعارف عليه، وترتب عليها العبادات الوقتية من صيام وصلاة وحج وكفارات.

قد يخطر ببالك أن هذا الافتراض تُكلّف مبالغ فيه، لا أبدًا بل هذه احتمالية مفتوحة لتفتيق أسوار ذهنك المألوفة والمقولبة عادة على أنماط تغلف بالقداسة المطلقة، بينما هي ليست كذلك، يقول (لوك): «لا تمثل المعاني في مدلولاتها الفورية سوى الأفكار والتصورات في عقل من يستخدمها»[1]، هناك مرونة في الوجود والفكر والحياة والتصورات أكبر بكثير مما هو واقع متصلب في عالمنا وفي أذهاننا، وكل ما تراه

(١) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص١٧٢.

وتعايشه في حياتك اليومية ما هو إلا أعراف قد استقرت وأسماء تواطأت عليها العقول، فأصبحت معارف وأجناسًا، وهذا لا يتعارض أبدًا مع أن الله قد علم آدم الأسماء كلها، وتعليمه لهذه الأسماء بطريقة التوصل إلى ما يستقر منها، فيبقى بحكم سبق علمه، فلا يرد أن يكون المقصود وجود (قائمة أسماء بكل شيء) قد أدرجت قدرًا اصطحبها آدم معه عند نزوله، بقدر ما يكون المعنى حول تزويد آدم ومن بعده ذريته بملكة التعرف إلى أشياء وتسميتها بالأسماء المقدرة قدرًا يسبق الوقائع والأحداث، واستعمالها والاستقرار عليها وعلى أعرافها، وقد سبق علم الله بذلك سبقًا مطلقًا قبل أن يكون ما هو كائن من الكائنات، ولا يتعارض أيضًا مع تسمية الشهور وعدتها وأيامها المعتبرة عند الناس عند تنزل القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦] وذلك لأن كل ما يحدث في هذا الوجود هو مما يأذن به الله وحده لا شريك له ومما يعلمه ويختاره ويقدره للمخلوق الذي يختار في نطاق محدد تكون المحاسبة عليه، ولا يحاسب على ما سواه.

*****

الزمان الأرضي والأزمنة الكونية

إذا نطق لسانك بالزمن فأنت تتصور أنك تتكلم عن شيء ثابت ومعلوم علم اليقين، والحقيقة خلاف ذلك، فأي زمن تتحدث عنه في هذا الكون؟ إنها أزمان لا متناهية تسجل مع كل حركة من حركات أقمار وكواكب ونجوم ومجرات هذا الكون، وزماننا الذي نتحدث عنه مجرد قطرة لا تكاد تذكر في بحار الأزمنة الكونية، وهو ظاهرة نسبية مرتبطة بكوكب الأرض فقط، ستدرك حجم الوحشة الزمانية الحقيقية عندما تعلم أن حجم (الكرة) الزمانية التي تعرفها وتفهم الوجود من خلالها لا تكاد تشكل نقطة صغيرة في عالم الوجود الفعلي، لنفترض جدلًا أننا تجاوزنا تلك الإشكاليات العرفية الداخلية مع أسماء ومقادير ووحدات الزمن من داخله، وأخذنا بالعرف الدارج، واعتبرنا وحدات الزمن في الوجود هي الثانية والساعة واليوم والشهر والسنة

كما هي الآن، فسنصطدم أيضًا بعقبة أخرى تجعلنا نلتصق بكوكبنا الأرضي حتى لا ينفلت الأمر منا، ويذوب مشروع الزمان بالكامل من بين أيدينا، ونبقى في وجودنا هذا بلا زمن! كيف يحدث هذا؟

إننا نعيش على كوكب الأرض فقط، ولا نستطيع النفاذ من أقطار السماوات والأرض، يعني أننا قد استسلمنا للتحدي القرآني الصارم: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] وهذا يعني أننا نتعامل مع زمن أرضي (مسكين!) حاله كحالنا يعيش معنا على أرضنا، ونسبي من حيث علاقته بالزمان المطلق! هذا الزمن يقتصر وجوده على عالم الأرض من خلال رصد حركات الشمس والقمر من نقطة على سطح الأرض نفسها، ثم بمفهومنا لمقاييس زمن الأرض الضيق، وعلى الرغم من ذلك يبقى هذا الزمان بعلته منطلقنا الوحيد لمعرفة الوجود كله نحاول من خلاله أن نفهم زمان الكون الفسيح، فاليوم الأرضي جعلناه أربعًا وعشرين ساعة، ونحن على يقين أن اليوم الأرضي مرتبط بتقلبات الليل والنهار عندنا على سطح كوكبنا فقط، وأن هذا التقلب مرتبط بقشرة فضائية ضحلة تحيط بكوكب الأرض يتلاشى الزمان بعد ارتفاعنا مئات الكيلومترات من فوق سطحها، حيث هناك لا شروق ولا غروب ولا ساعة ولا يوم ولا شهر ولا سنة ولا هلال ولا بدر إلا بالرجوع للأرض التي من زمانها العرفي ننطلق لفهم أزمنة الكواكب في مجموعتنا الأرضية من خلال وقوفنا على منصة سطح الأرض واستخدام وحدات الزمان الأرضية مرجعًا لفهم ما هو خارجها.

إننا مرتبطون بالأرض زمانًا ومكانًا، ولكي نفهم ما هو أضخم وأعظم منها في الفلك لا بد من إعمال قوانينها ونواميسها لتصبح منطلقنا للكون الفسيح، فنأتي إلى كوكب المشتري الذي يدور حول نفسه ليحدد يومه بدورة كاملة كالأرض، ويدور حول الشمس ليحدد عامه الكامل كالأرض، فنقول: إن عامًا واحدًا من أعوام المشتري يعادل ١١ عامًا وعشرة أشهر وثلاثة أيام قياسًا إلى الزمن الأرضي، ثم ننتقل إلى كوكب بلوتو أو الكوكب الغامض فنقول: إن السنة على ذلك الكوكب تعادل ٢٤٧,٧ سنة أرضية، ويومه يعادل ٦,٤ يوم أرضيّ، وهذا يعني أنك عندما تبلغ من العمر ستين سنة أرضية، فإنك لم تتجاوز ثلاثة أشهر أو ربع سنة (٢٤ , ٠) من سنوات بلوتو! وهذا

بالنسبة إلى كوكب من مجموعتنا الشمسية القريب منا، فكيف بجرم سماوي آخر يبعد عن كوكبنا مليارات السنين الضوئية؟!

وهكذا يصبح خيارنا البشري المحدود هو الضرورة في القياس التقريبي الأرضي في الزمان لعجزنا عن إدراك الأبعاد الحقيقية الدقيقة للأجرام الفلكية الهائلة في الضخامة؛ وذلك لكي نفهم أقصى تصور ممكن الوصول إليه عن هذا الكون العجيب، ونكتشفه اعتمادًا على المراجع الأرضية التي ارتبط بها الإنسان إلى الأبد، وهذه كلها في عداد وتفكير الإنسان وعقله المحدود، وما ندري عن شأن هذا الكون الرهيب وأيامه وأعوامه التي هي قطعًا خارج استيعاب عقولنا وفوق مداركنا المحدودة، إننا حقًّا ضعفاء، والمسكين منا من يتظاهر بالمكابرة والعناد أمام عظمة الله الخالق الباقي، وهو عما قليل سيصبح ترابًا ورمادًا، ولقد أشار القرآن إلى تفاوت مضامين مصطلح (اليوم) مع ثبات اللفظ في قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] ولم يقل: (اليوم) فيحصره، بل قال: ﴿يَوْمًا﴾ [الحج: ٤٧] بالنكرة المطلقه، ما يعني عموم تعدد تلك الأيام الكونية المجهولة عند الناس فيما عدا يومهم الأرضي الذي يعدونه، وحسابهم الذي يحسبونه، وجميع أيام الله هو الذي يعلمها، ولا نعلمها.

هذه الأبعاد الموحشة للزمان عند المعرضين عن الله تنقلب إلى جنة من الطمأنينة والهدوء والأنس والراحة عند المؤمنين لمجرد الانضواء تحت لواء الوحي ولاستظلال بظله الممدود، وذلك بتسليم تفاصيل هذ الأمر له وحده، وهنا يجب التأكيد على حضور القرآن متألقًا وحاسمًا في كل حقل من حقول المعرفة لا يخضع لزمان ولا لمكان بعينه، وكأنه لم ينزل إلا لنوازلنا الفكرية المعاصرة، وقد وجد فيه من كان قبلنا حلًّا لكل معضلة كما وجدناه اليوم، وسيجد من سيأتون بعدنا كما وجدنا، ولا عجب، أن القرآن كلام الخالق ﷻ، ولا اختلاف فيه؛ لأنه من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدنا فيه اختلافًا كثيرًا، كما نجده في كل كتاب بشري دونه.

وإذا كانت أحدث الدراسات التاريخية تؤكد أن فترة وجود الإنسان على الأرض قصيرة جدًّا وصفها أحد الباحثين[1] بأنها لا تتجاوز فقرة أخيرة من آخر صفحة في

(١) حول الحقيقة والاعتقاد والإيمان، جاك بوفراس، ٢٠٠٧، مرسيليا، فرنسا.

كتاب من ألف صفحة عن عمر الأرض، وأن القرن الماضي بكامله لا يتجاوز حجم آخر نقطة في آخر سطر من آخر صفحة من ذلك الكتاب، ولو افترضنا أن عمر الأرض سنة واحدة، فإن فترة وجود الإنسان عليها لا يتجاوز بضع ثوانٍ[1].

فواخجلاه من ربنا! إذا قلنا: إن وجود الإنسان على الأرض لا يتجاوز بضعة ملايين من السنين كحدٍّ أقصى، فماذا يشكل هذا العمر القصير من وجوده؟ وماذا يشكل عمره من هذه الفترة؟ لا أقول بالنسبة إلى عمر الكون الذي يقدر بما يزيد على ١٥ مليار سنة، وإنما من سنة شمسية واحدها قوامها ٢٥٠ مليون سنة أرضية، أتدري كم استغرق وجود الإنسان على الأرض بالنسبة إلى السنة الشمسية فقط؟ يعني أنه منذ وجد الإنسان وحتى اليوم لم يمضِ من سنة شمسية واحدة سوى ٢٪ منها فقط، علمًا أن الشمس تسير في مدارها حول مركز المجرة بسرعة ٢٢٠ كم بالثانية، منذ وجدت وهي تجري لتقطع هذه المسافة، وتكمل سنتها الأولى بعد ٢٥٠ مليون سنة أرضية!! تخيل أنه لم يمضِ سوى هذه المدة القصيرة من الدورة الشمسية الواحدة! وهذا يعني أن نزول آدم وجميع الأنبياء والرسالات السماوية والعقوبات والآيات والمعجزات والفتوحات والتحولات الحضارية والحروب والمجاعات والأمراض والوجود البشري والانقراض وتلك الدول التي سادت ثم بادت، إمبراطوريات ودول الخلافة، وأنت تتبعها دراسة وتحليلًا بخبراء التاريخ وعلوم الإنسان، وتظن أنها أزلية تبدأ من الزمان السحيق، وإذ بها لا شيء في مقياس الزمان، ولا تتجاوز لحظات منسية في سلم الزمان المطلق المعروف، فكيف بما هو غير معروف؟!

فإذا كان هذا الحال مع كامل فترة وجود الإنسان على الأرض، فكيف يكون الحال مع عمر الفرد منا وأشد من ذلك ما مقدار عمر الواحد منا سواء آمن أم لم يؤمن، على ضوء هذا الحساب الرهيب! أرأيت كيف يكون الإنسان ظلومًا جهولًا بحق عندما ينصب نفسه حكمًا مجادلًا في أسرار الوجود الأعظم، مجدفًا بكل اتجاه، وهو أمام هذه التفاصيل المعقدة مع ضعف علمه عن الوجود؟! وصدق الله العظيم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨] ولكن على الرغم من شدة هذه

(١) العلم في ١٠٠١ سؤال، تريفل، (مرجع سابق)، ص٩١.

الوحشة الزمانية هناك مخرج آمن وفي متناول أدنى الناس فضلًا على أعلاهم، وسيأتي توضيحه بعد التطرق إلى وحشتين أخريين، هما: وحشة المكان ووحشة الموت والفناء.

*****

ثانيًا: وحشة المكان

أتدري ما المكان؟ حسنًا! يعرّف الفلاسفة المكان بأنه: «السطح الباطن للجسم الحاوي الماس للسطح الظاهر للجسم المحوي»! أي إنه منطقة التماس بين الوجود والجسم الموجود فيه، التي تأخذ شكل الجسم أيًّا كان، فالتفاحة مثلًا تزيح من الفراغ بقدر حجمها، وتأخذ منه شكلًا يرسم حدودها من داخلها ونحن نراها من الخارج، والمكان طبيعة موجودة لا تُلمس، ولا يقاوم تحرك الأجسام، ويمكن أن يشغله جسم ما، وهو فراغ خالٍ مؤقتًا من أي جسم ومن دونه تستحيل الحركة، وهذا يعني أن للمكان ثلاثة أبعاد: طول وعرض وعمق، وأنه لا تتداخل فيه أشياء مستقلة بعضها في بعض في مكان واحد[1].

ولكن هل يكفي هذا التعريف السطحي للمكان؟ ما حقيقة المكان إذا ما سبرنا غوره، وتعمقنا في بحاره؟ وكما كان الاستفهام عن الزمان وحقيقته عند التفصيل موحشًا محيرًا لمن لا يأمن منه بالملاذ الإلهي، فسيكون أيضًا موحشًا عن المكان وطبيعته، فالسؤال الموضوعي مرة أخرى هو: هل يوجد مكان ثابت مستقر أصلًا في الوجود الذي نعرفه؟ الجواب عن ذلك بالنفي طبعًا؛ لأن التموضع الحاصل لكل شيء في الكون نسبي قطعًا، والثبات يعني نسبته إلى ثابت أكبر منه وهكذا، ومن لا يؤمن بوجود الخالق سيتدرج بالموجودات التي يعرفها من الصغير للكبير ومنه للأكبر، حتى ينقطع خياله وفكره عن استيعاب الأشياء الكبيرة جدًّا (فيغصّ) بفكره ويتيه بخياله، فينتكس إلى حياته الدنيا يتمتع بها فحسب، ويمسك بهذه القشة (الأرض) مسكة تشبه تشبث جنين الغور لا بصدر أمه ملتصقًا بها خشية السقوط، وهي تقفز من مكان لآخر، أما المؤمن بوجود الله

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٤٦١.

والمستيقن أن المكان من مخلوقات الله، وأن الله مهيمن على كل شيء فلا يعنيه أن يدرك أو لا يدرك أي مخلوق هائل، ولا تعنيه سلسلة النسبة للأشياء الكبيرة طالما أنه سيصل في النهاية إلى الأكبر الذي ليس كمثله شيء، ولذلك يعيش سعيدًا مرتاح البال، وهو ينتظر من ربه وعده الحسن الذي سيلاقيه، وسيحضر هو ومن لم يؤمن إلى يوم القيامة على حد سواء، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص: ٦١].

ومن غرائب تصورات الإنسان أنه يتخيل الوجود دائرة كروية كبرى ثابتة مستقرة تحوي موجودات الوجود كالكواكب والنجوم والمجرات متناثرة داخله، كما تتناثر حبّات العدس العالقة داخل بالون ضخم! يا له من تصور افتراضي غريب جدًّا! فنحن أصلًا لا ندري عن كيفية شكل وحدود الوجود الذي نحن جزء منه فضلًا على كيفية ما وراء هذا الوجود حتى نتخيل شكله وحدوده، وإذا كان ثمة حد بين الوجود وبين شيء آخر فالوجود لا يزال متواصلًا ولا حد له أصلًا، فالشيء المحاذي للوجود هو وجود بذاته! وإلا فماذا سنسمي ما بعد الوجود؟! هنا يتجلى العجز المطلق للإنسان في أوضح صوره، أعلم أنك لا تريد المواصلة لما بعد ذلك من الخيال؛ لأنه لا أحد منا بمقدوره معرفة الحقيقة فيما وراء ذلك، ومن ثم، فأنت في غنى عن التخمين البشري والتخرصات المفتوحة، وستجد نفسك مجبورًا للرجوع إلى خبر الوحي فقط، إذ لا شيء سواه.

وعند التعمق في البحث عن الوحشة المكانية سنجدها أشد غرابة من الزمانية، ولا بد أن تدرك أنك أنت الآن حيث أنت لست في نقطة ثابتة في الكون أبدًا، ولا يمر من عمرك ثانية واحدة إلا وأنت تتحرك من مكان لآخر وفي جميع الاتجاهات والمحاور الفراغية، تسبح في عالم الكون الفسيح، ولا تمر على المكان نفسه مرة ثانية أبد الآبدين، وكيف تكون ثابتًا كونيًّا وأنت على أرض سابحة في فلكها تدور حول الشمس الدائرة هي الأخرى ضمن مدارها، من بين نجوم المجرة المتوازنة هي الأخرى أيضًا مع المجرات المتحركة جميعها في كون لا يعلم تسلسله وأبعاده واتجاهات تحركاته إلا الخالق الذي أوجده، وفي مدارات يصعب تصورها بالعقل البشري، ولم يقل فلكي واحد: إنه اكتشف مركزًا ثابتًا للكون تدور حوله مجراته وأجرامه، إذًا أنت في مكان عائم يستحيل

معرفته ولا تحديد إحداثياته نسبة إلى نقطة كونية ثابتة، أنت لست معلقًا في نقطة ثابتة في الفراغ الكوني، ولست سائرًا في اتجاه معين مهما كانت السرعة، بل أنت جسم مقذوف بلا اتجاه، لكنه يعوم منطلقًا إلى حيث لا جهة، ومع هذا فالمسافة التي تقطعها طيلة حياتك لا تكاد تذكر في حجم ضخامة الوجود الذي أمكن للإنسان معرفته، فكيف بما لا يمكن معرفته؟! وجميع القياسات الزمانية والمكانية مرتبطة نسبيًّا بكوكب الأرض وظروفه، ولو اختفى هذا الكوكب من الوجود لاختفى معه كل ما تعلمه عن الزمان والمكان وشؤون الإنسان!

هذا يعني أنك من الناحية الواقعية تهوي في عالم الكون السحيق دون أن تشعر، لثباتك النسبي الملتصق بكوكب الأرض مثلك مثل قائد السيارة التي تتدحرج وهو يتقلب فيها مثبتًا بحزام الأمان، فهو ثابت بالنسبة إليها لم يتحرك من مقعده ومتقلب معها عشوائيًّا يتبعها يميل هو وكل ثابت بداخلها حيث مالت، وهذا يعني أنك في الكون بلا عُلو لك ولا سُفل ولا يمين ولا شمال ولا مشرق ولا مغرب، بل أنت أمام مشارق ومغارب لا عد لها ولا حصر، لكنها منتظمة وفق نظام دقيق جدًّا لا يعلم أسراره إلا الله العظيم الخلاق العليم، الذي أخبرنا عن قدرته المطلقة بالقسم بتلك المشارق والمغارب؛ لكثرتها وعظمها في الوجود، وكان القسم أيضًا على قدرته العظمى ﷻ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠] تذكر أيضًا أن هذه الآية قد نزلت على نبي أمي لا يقرأ ولا يكتب، والله إن هذا القرآن بمثل هذه الآيات ليطل علينا شامخًا من حائط الثقة النوارنية المريحة منقذًا ونورًا وشفاءً لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، إنه ورب السماء ليقين مطلق يسحق كل ذرة شك تنطلي على بصيرة من له أدنى عقل، فهذه المشارق والمغارب في وجود ضخم وأبعاد سحيقة لا يحدها حد، ولا يحصرها لفظ، يصعب تخيلها اليوم وأنت في عصر المركبات وسفن الفضاء وسرعة الضوء، وعليه فالقسم بها هو على أمر أعظم منها كثيرًا كثيرًا، إنه قدرة الله! آمنا بالله ربنا.

إني لأشعر بالقصور والضعف، وأنا أحاول لفت الأنظار إلى تدبر معاني آيات القرآن العظيم، أريد أن أوصل إلى عقلك أني أحيلك إلى شيء عظيم بل من أعظم ما نفتخر بإيماننا به وتصديقه، ولذلك ليس غريبًا أن يذكّرنا القرآن نفسه بها تهتز له

القلوب، وتقشعر منه الجلود، ثم يختم كل آية بعتب، أفلا تذكرون؟ أفلا تتقون؟ فأنى تسحرون؟ استمع إلى التوبيخ الرباني، ويا للحياء من ربنا!: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩٠].

*****

أين موقع الأرض؟

الوسائل الحسابية المتبعة لتحديد مواقع الأجرام السماوية والمسافات بينها ليست مستساغة عند غالبية الناس؛ وذلك لصعوبة تصورها، فما بالك بما وراء النظر الطبيعي وما وصلت إليه التلسكوبات الجبارة، فالإبصار المباشر بالعين ليس كالبصيرة الثاقبة بالعقل، ولهذا كان العلماء أشد خشية وتقديرًا لعظمة الخالق لما أدركوه من عظمة الخالق التي تكاد تنشطر معها عقول البشر، عندما يحاولون تصور المسافات بين تلك الأجرام السماوية، سأذكر هنا مثالًا يقرب الصورة، فإذا تخيلنا أن الأرض بحجم حبة العدس فستكون الشمس بحجم التفاحة الكبيرة، وإذا افترضنا أن المسافة بينهما خمسون سنتيمترًا، أي نصف المتر (وهي في الواقع ١٥٠ مليون كيلومتر)، فعلى أساس هذه النسبة سيكون أقرب النجوم إلينا هو (النجم القنطوري Alpha Countorus) على مسافة مئة وأربعة وثلاثين ألف متر (١٣٣,٧ كم)، (وهو ما يعادل ٤,٣ سنوات ضوئية)[1]، وسيكون نجم سهيل اليماني الذي تراه في الجنوب على مسافة (١٥,٠٠٠) خمسة عشر ألف كم (وهو في الحقيقة يعادل ٣١٠ سنوات ضوئية)، وهذا يعني أنه لو وجدت الأرض والشمس على مسافة ضمن طاولة الأكل الصغيرة في غرفتك في مدينة الرياض فسيكون أقرب نجم إليها على مسافة ١٣٣ كم من حيث تقع تلك الطاولة! ويكون

(١) السنة الضوئية الواحدة تعادل ٩,٣٣١,٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر (٥,٨٣ ترليون ميل).

نجم سهيل على مسافة ١٥,٠٠٠ كم منها، أي على مسافة أبعد من مدينة بكين عاصمة الصين![1] طبعًا لن تستوعب هذه الأبعاد بسهولة، وسيزداد عجزك عندما تدرك أننا نتحدث عن مكان وجودك وأقرب نجم قد تراه بعينك، فكيف سيكون الحال بالنسبة إلى ما لا تراه؟! وماذا عن أفلاك لا يمكن رؤيتها بأي وسيلة مباشرة؟! لكن أريدك أن تطمئن أيضًا بأن هذا الوجود العظيم لا ينتظر فهمي وفهمك ولا إيماني وإيمانك لكي يصبح وجودًا على الوضع الذي أوجده الله عليه! إنه وجود قائم بذاته بعيدًا عما يدور في عقلي وعقلك! وفوق ذلك كل ما فيه يسبح لخالقه، فوا خجلاه مرة أخرى من خالقنا وخالقه أن لم نكن قدرناه حق قدره، وأحسنّا لأنفسنا بالإيمان به!

وحتى لو بقيت ضمن إطار تصوراتك الممكنة، وحاولت معرفة مكانك في الوجود سيبقى لك المكان موحشًا أيضًا، فإذا تحدثت عن الكون المنظور بالعين المجردة، وقلت: إن الأرض تقع في مدار محدد ضمن المجموعة الشمسية تدور حول نفسها مرة كل يوم، وحول الشمس مرة كل سنة أرضية، وتقف هنا (وهذه الحقيقة اختلف عليها الناس آلاف السنين)، فأنت بهذا التصور لم تجب عن السؤال أصلًا؛ لأن الجواب في حقيقته موحش للغاية، تحديد مكان الشيء يجب أن ينسب إلى ما هو أكبر منه، وكل كبير إلى ما هو أكبر منه، حتى ينقطع حبل الإدراك والعقل، ولا يزال متسلسلًا مع علل المخلوقات، ويستحيل عليه الوصول بخياله للخالق. لنتعمق أكثر وأكثر في وصف وحشة المكان، ولنحاول الاقتراب من الخيال إلى الواقع، لا يستطيع أحد أن يقول: إن الأرض تدور حول الشمس في اتجاه الجنوب، أو الشمال، أو الشرق أو الغرب؛ لأن هذه الجهات الأربع نسبية إلى الأرض بحكم دوارنها حول الشمس التي تتراءى لنا وكأنها تشرق من جهة، وتغيب من جهة أخرى، ونحن بكوكبنا نلتف يوميًّا، فتظهر الشمس إذا واجهناها، وتختفي عنا إذا خالفناها في الجهة الأخرى.

---

(١) إذا كان نجم سهيل اليماني على هذا البعد السحيق فكيف نشاهده؟ إننا نراه لأنه أكبر من الشمس ٦٥ مرة! وألمع منها ١٣,٠٠٠ مرة ولو كان مكان الشمس لارتفعت حرارة الأرض إلى أكثر من ٦٠٠٠ كالفن ولذاب جزء منها وانطلق في الفضاء: (One-Minute Astronomer.Canopus – The (Star of Old Age), Brian Ventrudo, January 20, 2011).

ولتسهيل فهم هذا التصور البدهيّ جدًّا عن حقيقة المكان في الوجود، لنفترض وجود نقطة وهمية ثابتة في مكان ما من الكون، وللنظر إلى مكان الأرض بالنسبة إلى موقع هذه النقطة، تعالَ لنعرف وجهة الأرض في الكون! لأن الأرض تدور حول الشمس (دورة كل سنة أرضية) بسرعة ٣٠ كم/ ثانية، وفي مدار متوسط نصف قطره ١٥٠ مليون كم، فلنفترض أنها تتباعد عن تلك النقطة الافتراضية في اتجاه الغرب الافتراضي للنقطة بهذه السرعة والشمس المنتظمة مع كواكب المجموعه الشمسية أيضًا بما فيها الأرض المرتبطة فيها، تدور في اتجاه آخر برفقة حزمة كواكبها بسرعة ٢٢٠ كم/ ثانية حول محور مجرة درب التبانة في اتجاه الجنوب الافتراضي (دورة كل سنة كونية مقدارها ٢٥٠ مليون سنة أرضية)، وعلى مدار نصف قطره ٢٥,٠٠٠ سنة ضوئية، وهذه المسافة بمقياس المسافة الأرضية المتعارف عليها بالكيلومتر تساوي تقريبًا (٢٣٣,٢٨٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠كم)، وأن مجرتنا بكاملها تدور حول فلك سماوي أكبر منها في اتجاه الشمال الافتراضي لتلك النقطة التي بدأنا منها بدورة رابعة (....) الله أعلم كم مدتها وإلى أين اتجاهها؟، لربما تبلغ مدتها بلايين السنين الزمانية، وعلى مسافات فوق مقدور حساباتنا أيضًا تتجاوز بلايين السنين الضوئية، حيث إن هذه المجرة واحدة من نحو ٢٥٠ بليون مجرة كونية، أين وصلنا في حركة كوكبنا الآن؟! لا يستطيع مخلوق أن يعلم هل نحن في انحدار أو ارتفاع أو نسير في اتجاه اليمين أو الشمال؟ وهل لا نزال ممسكين ببوصلة تحديد الوجه إن كان ثمة وجهة؟ بعد هذا قل بربك: أين أنت من حيث المكان؟ وأي اتجاه تسلكه في هذا الوجود؟، وهل تستطيع رسم خط السير وأبعاده وإحداثياته الكونية؟ وأين نحن متجهون معك بسفينتنا الكبرى (الأرض) في هذا الكون المخيف؟ أجزم أننا جميعًا هذه اللحظة نحتاج إلى الفرار الى خالق هذا الوجود ومدبره، فهو الملاذ الوحيد لنا من كل رعب ووحشة.

سبحان من أحاط بكل شيء علمًا!، كم هو جهول هذا الإنسان المسكين الذي كلما سمع العقلاء والأسوياء يتحدثون عن بعض ما أدركوه من عظمة القرآن وحجته الداحضة لكل باطل، يقفز إلى ذهنه أنهم إنما يعملون ذلك لأهداف ترويجية ودعائية ودفاعية وكأنهم يروجون لمؤلف بشري متميز أو لمنتج صناعي متطور يراد تسويقه!، بينما الأمر مختلف جدًّا، فهؤلاء الذين ينبهون إلى عظمة القرآن، ما هم إلا مصابيح

سخرهم الله ليخبروا الناس بما فتح الله عليهم من نوافذ البصيرة، وبما رأوا من خلالها عن هذا الكتاب الحكيم ما جعلهم يتحدثون فرحين معجبين مستبشرين ومبشرين ومنذرين، ليدلوا الناس إلى ما وجدوا من كنوز معرفية باهرة، إنهم حقًّا ينادون الناس بأعلى صوت ممكن قائلين: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

*****

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]

وهكذا يصبح التصاقنا بالأرض وجودًا وعدمًا وزمانًا ومكانًا ضرورة وجودية، فنحن من الأرض وإليها نعود حتى يتم إخراجنا منها تارة أخرى انطلاقًا من منصة الأرض إلى عالم الآخرة، تأمل معي آية عظيمة من كتاب الله طالما مررنا عليها مرورًا عابرًا دون التوقف عند مفرداتها، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[طه: ٥٥] لنتجاوز التفسير التقليدي لمعانيها عند بعض من يفسرونها بأن الله قد خلق أجسادنا من الأرض، ثم ندفن فيها بعد الموت، ثم نبعث منها مرة أخرى ويقف، ولنتحول إلى المفهوم الأوسع والأعمق عندما يفسرها من فتح الله عليه ببعض علوم الدنيا، فيفهمها بأن الله خلقنا منها بكل شأننا بأجسادنا وحياتنا وأفكارنا ونظرتنا وفهمنا لما يدور حولنا، وأنه يعيدنا إليها، ولا نزال فيها حكمًا بمقابرنا في أثناء الحياة الدنيا، وبعدها يخرجنا ليس من القبر فحسب بل من جميع أدوار الحياة الدنيا وقوانينها ونواميسها التي ارتبطنا بها في حياة أولى إلى حياة أخرى ونواميس أخرى، فالإنسان وإن قدم إلى الدنيا عاريًا فإنه لن يبعث مرتديًا لباسه وعمامته، ولن يحيا ويموت كما كان حاله في الدنيا بأعرافها ونواميسها، ووضعه الحسي والنفسي، لن يكون أبدًا كما كان في الدنيا وتلك هي التارة الأخرى في الحياة الأخرى، بل هي النشأة الأخرى المختلفة عن النشأة الأولى.

إن إخراجنا من الأرض بعد أن تم دفننا فيها عملية جديدة لا تخضع مطلقًا لأيٍّ من قوانين الوجود المعروفة فذلك عالم آخر، ولهذا تُعدّ تلك اللحظة التي يقوم فيها الناس لرب العالمين لحظة الرحلة الكبرى والأخطر في حياة الإنسان ووجوده، ماذا عسى

أن تفعله رحلات السفر العادية بوعثائها ومشاقّها مقارنة بها ومع هذا تُعدّ رحلات السفر في الدنيا أنموذجًا مصغرًا للرحلة الكبرى، ألا ترى أننا – مثلًا – ما إن نقلع من الأرض بالطائرة إلا ويغشانا الحنين إليها، ويكون أول ما يهمنا من أمرنا متى وكيف نهبط إليها بسلام؟! وما إن تنطلق الرحلات الفضائية المأهولة حتى يحبس القياديون في غرفة التحكم أنفاسهم إلى أن ترجع سفينة الفضاء بسلام، فيستقبلونها إذا هبطت بالتصفيق والصراخ والعناق فرحًا برجوعها إلى العش الأرضي، وما إن تنطلق الأفكار نحو الكون إلا وترجع إلى الإرض كرجوع كل طائرة ومركبة إليها كي نفهمها من الأرض فهمًا صحيحًا، كما هو الحال في أعوام الكواكب وأيامها في المجموعة الشمسية.

إن إخراجنا من الأرض تارة أخرى ليس مقصورًا على الخروج من القبر وإعادة الحياة إلى الجسد فحسب، بل هو إخراج مفتوح إلى عوالم الآخرة وما فيها من نشأة جديدة ونواميس وقوانين (أخرى) مختلفة تمامًا عن تلك التي كانت في الأرض، انظر كيف يمكنك أن تقرأ آيات القرآن، فتفتح لك آفاق الوجود عندما تتلوها مع قليل من العلم الذي يفتق لك نوافذ فكرك وبصرك وبصيرتك، فتكون أكثر خشية وتعظيمًا لله ممن يقرؤه تلاوة فقط دون تدبر أو ممن يقتصر على فهم السابقين الأوائل المجتهدين بما عندهم من العلم، دون أن يفعّل المرء عقله، فيتفكر فيما فتح الله به من العلم المتجدد من بعدهم، ومن ثم يجد في القرآن من المعجزات ما لم يجدوه.

هنا ندرك الوصف الرباني العادل للإنسان في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧] حقًّا ما أكفره! بل ما أجهله وأعنده وأظلمه لنفسه، وهو يرى كل ما في السماوات والأرض والوجود من الآيات، ثم لا يلين قلبه لذكر الله الخالق! إننا ورب السماء نحن الضعفاء إليه معشر البشر، ونحن الفقراء بين الخلق، بل لسنا والله إلا على هامش الخلق والوجود كله، واستخلفنا الخالق في هذه الأرض تكريمًا منه لنا لنعيش على كويكب مغمور لا يكاد يذكر حجمًا في هذا الكون الشاسع ونحن ندور حول مفاهيمنا المرتبطة به زمانًا ومكانًا، التي لم نحط بها بعد، نصرف الأموال الطائلة نحاول الوصول بمركبات غير مأهولة إلى أقرب كويكب نراه بعيوننا (المريخ) كي نسجل (اختراقًا!) في علم الفلك يكلفنا مليارات الدولارات، فننجح تارة، ونفشل تارات، ولا أمل للذهاب

أبعد من ذلك في الوقت الراهن، نفكر نخترق العوالم الأخرى لما حولنا من أجرام نراها بأعيننا، ولا نطولها بحال، كلما أمعنا النظر فيها رجع إلينا البصر خاسئًا وهو حسير، فوجدنا الراحة في الأرض التي يعيدنا الله إليها.

رحماك ربي، حقًّا إن جدل الإنسان في الوجود ظلم وجهل لا نظير له، إذ يجادل في الله وهو لا يدري ما زمانه ولا مكانه، ومع هذا تتنزل آيات الرحمة لحسم هذا الأمر بخطاب تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ويهز القلوب هزًّا، فكان خطابًا للناس كافة إلى الأبد، ولم يكن مقصورًا على أهل مكة، أنصت جيدًا إلى هذه الآيات التي توضح عجز الإنسان وفشله في حال الإنكار والكفر عند مواجهة براهين اليقين والإيمان التي بين يديه، تأمل قوة لغة القرآن ومتانته، وهو يخاطب كل إنسان منذ وجوده على الأرض إلى الأبد، بالخطاب نفسه وبدرجة التحدي نفسها، استمع: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧- ٨٣].

*****

ثالثًا: النَّمْلُ [الجمعة: ٨]

الموت! تلك الكلمة التي تستسلم لوقعها كل المسامع، وترتجف لها القلوب والأجساد، إنه الموت وكفى، القدر المحتوم الذي لا حيلة معه على الإطلاق، ولا يضرب سوى مرة حاسمة قاضية لا يتردد فيها أبدًا، لا ينجو منه سوى من أوجده، وكتبه على جميع خلقه بلا استثناء، تأمل ما حولك من الحياة والوجود، وسترى أن جميع المخلوقات لديها غريزة حب الحياة وكراهية هذا الموت، إنها تفهم الموت بالإجماع، وتفعل كل ما في وسعها للنجاة منه حتى تصل إلى فعل ما ليس في وسعها عمله أحيانًا فرارًا من الموت،

الكل يفر من الموت، الرضيع يصرخ من الخطر كي لا يموت، وهو لا يعرف شيئًا بعد، والكبير وكل البشر، الفيل والبعير والغزال والحوت والحصان والطير والنحل والنملة والبعوضة والكائنات المجهرية، إنها جبلة كل كائن حي كبيرًا كان أم صغيرًا، غريزة الفرار من الموت تثبت أن لا وحشة كوحشة قاصم الحياة ومنهيها (الموت).

سبق الإشارة العابرة إلى الموت في فصل سابق، ولكن الحديث عنه هنا سيكون أكثر تفصيلًا في سياق إثبات الوحشة الوجودية، فلولا الحياة ما عرفنا الموت، والحديث عن وحشة الموت لا بد أن يسبقه محاولة لفهم الحياة طالما أن الموت هو نقطة النهاية لها، وللحياة أسرار أخرى كأحد أسرار هذا الوجود العجيب التي لا تنتهي عجائبها، فما الحياة التي نحياها؟ وماذا عن محاولات الانسان البائسة لفك أسرارها وألغازها عبر التاريخ؟ لقد كانت جميع نتائج البحث المضني عن هذا السر غير حاسمة بل فاشلة تمامًا فيما يخص فك شفرة الروح ومعرفة أمرها وجودًا وعدمًا، ولا تزال العقول عاجزة عن فهم هذه الإضافة الإلهية العجيبة على الماديات المحسوسة من جسم الكائن الحي (لحم وعظم ودم وجسم)، فتنقله هذه الروح من كتلة جامدة إلى كائن متحرك، وعقل واعٍ يفكر، ولسان ناطق يجادل، ورئة تتنفس ليل نهار، وقلب ينبض مدى الحياة بانتظام، ودورة دموية، وهيكلية وغذائية، وجهاز هضم ونظام مناعة وغيرها، أجهزة حيوية تتكرر مع جميع أنواع المخلوقات الحية متكيفة مع طبائعها المتعددة، فإذا ما انفصلت هذه الروح الغامضة عن الجسد الحي تعطل كل شيء فيه، وتسابق إليه الدود والعفن ليرجع ترابًا.

إنه لا سبيل لمعرفة أسرار الروح في هذه الحياة، والإنسان المتوازن فكريًّا لن يُفاجأ أبدًا عندما يعلم أن السؤال الذي طرحه الفلاسفة في القرن السادس قبل الميلاد عن الروح والحياة، هو السؤال نفسه الذي يطرحه علماء اليوم وفلاسفته، وسيطرحونه في المستقبل، وسنرجع في نهاية كل مطافٍ إلى نقطة البداية مهما بلغنا من العلم المادي والتجريبي. لقد قام مفكر الكينونة (هيدغر)[1] في القرن العشرين باستعادة سؤال فلسفي قديم طرحه أرسطو قبل الميلاد عن ماهية الإنسان وماهية العلم والعالم،

(١) مارتن هيدغر Martin Heidegger (١٨٨٩ - ١٩٧٦م) الموافق (١٣٠٦ - ١٣٩٦هـ) مفكر الكينونة الألماني وعالم الرياضيات والفلسفة والعلوم الطبيعية والتاريخ قام بتدريس اللاهوت ومن أشهر كتبه (الكينونة والزمان) المرجع: (حوار الفلسفة والعالم: سؤال الثبات والتحول، ص١٠٧).

والسؤال هو: ما الوجود؟ وكان الجواب عند (هيدغر) هو جواب أرسطو نفسه، وهو تعدد أشكال الإجابات دون الوصول إلى جواب محدد[1].

ويبقى السؤال عن الروح من أوضح الأمثلة على وقوف الفكر البشري عند حده قديمًا وحديثًا، فلم يستطع أحد من الخلق أن ينفذ إلى أسرارها على الإطلاق، ابحث كيفما تشاء، ونقب في التاريخ المعرفي منذ أن بدأ الفلاسفة بطرح سؤالهم عن النفس والروح من حقبة ما قبل الميلاد وإلى يومنا هذا، ستجد أقوالًا لا تنتهي، وكلها محاولات ليس إلا! ثم تأمل هذه الآية العظيمة، وقدم كل ما في وسعك من شتى أصناف التحدي إن كنت تملك شيئًا من ذلك، ستجد نفسك معترفًا بالعجز أمام القوي العزيز، مرغمًا على الوقوف له بخشوع حتمي مستسلمًا له بضعفك للقوي، وبجهلك للعليم الحكيم الذي يقول سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] مرة أخرى وثالثة ورابعة، أنت المخاطب بهذه الآية تحديدًا، فتقدم، وقدّم ما عندك! واكسب جولة التحدي إن كنت قادرًا، ولكن هيهات أيها العبد الضعيف، الروح من أمر الخالق وحده.

*****

﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]

﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وكفى، هكذا قدرها الخالق سبحانه، ولقد سعى الإنسان بكل ما أوتي من قدرة وطاقة وفكر، محاولًا فهم سر الحياة، جميع العلماء والمفكرين والفلاسفة والباحثين لم يتمكنوا من الاتفاق أو الوفاق على شيء مقبول معقول حول مفهوم الحياة متى وكيف بدأت وتنوعت، وإن نظرة سريعة إلى بعض آرائهم المشهورة لتؤكد استحالة الخروج بشيء جامع مانع مما وصلوا إليه عن الروح، يقول (أفلاطون) ووافقه عليه (ديكارت) فيما بعد: «إن الروح والجسم كل منهما جوهر قائم بذاته ويجتمعان معًا كجزأين، وفي هذه الحالة توجد النفس قبل وبعد الجسم الذي

(١) حوار الفلسفة والعالم: سؤال الثبات والتحول إشراف نابي أبوعلي مقال: ماهية العلم وسؤال التقنية عند هيدغر، للكاتب كرد محمد، دار الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص١٠٧.

تحل به مؤقتًا»، وعليه فالنفس خالدة وفق هذا القول، ويرى (أرسطو) أن النفس (الروح) هي الصورة الجوهرية لجسم عضدي، حيث لا توجد روح دون جسد ولا جسد دون روح، ويفنى كل منهما بفناء الآخر[١].

ولما ألحت الأميرة (إليزابث) على (رينيه ديكارت) أن ينجدها بالتعليل الشافي في هذه المسألة، أفاض في القول إفاضة تنم عن حيرة شديدة دون أن يأتي بشيء جديد، وانتهى بأن المسألة لا تحتمل حلًّا عقليًّا، ثم لجأ إلى الله ليخرجه من هذا المأزق قائلًا: «إنه هكذا رتبت الأمور (هكذا رتبها الله) لخير الإنسانية»[٢]، وهذا النمط من المحاولات الوصفية العقيمة يتكرر مع الكثير ممن جاء بعدهم وإلى يومنا هذا دون نتيجة حاسمة للخلاف، وفشل المحاولات للوصول إلى برهان حسي عقلي على الوجود كله بما فيه من أحياء وأموات، دليل قطعي على استحالة استيعابه وفق قدرات العقول البشرية، يجب أن نعترف بأننا عاجزون وكفى.

لكن الحقيقة التي أسلفنا ذكرها والتي يجب التذكير بها دائمًا هي أن قصور العقول عن تصور الشيء لا يعني عدمه لأنه موجود محسوس بأجزائه المحيطة بنا المتصلة بما وراء إدراكنا الحسي وتصورنا العقلي، لقد قلنا هذا عن علم الغيب عامة، والآن نخصصه عن الروح التي هي أيضًا من الغيب، وإنك لتشفق على ذلك الإنسان المكابر، وهو يتحدى من فوقه قدرةً وعلمًا، دون أن يملك أدنى متطلبات التحدي المقارب فضلًا على المكافئ، وما الذي تغير حتى الآن في عالم البشر من بعد أن قال (ديمقريطس) قبل الميلاد: «إن الذرات لا محدودة ولا متناهية العدد، وإن الفراغ الذي توجد فيه الذرات غير متناهٍ أيضًا»[٣]، ألم يعترف كلٌّ من (ليونارد[٤] وجالليو وديكارت وسبينوزا) أنهم بالقوانين

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٥٠٦.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، (مرجع سابق)، ص٨٤.

(٣) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٤٩.

(٤) ليونارد أويلر (١٧٠٧ - ١٧٨٣) الموافق (١١١٩ - ١١٩٧هـ) فيزيائي وعالم رياضيات سويسري شهير اشتهر بإجراء العمليات الحسابية المعقدة ذهنيًّا ويُعدّ من أعظم الرياضين في التاريخ له إسهامات في جميع فروع الرياضيات وخاصة الهندسة التحليلية وحساب المثلثات: (Encyclopaedia Britannica- Leonhard Euler, Carl Boyer,).

الرياضية فسروا العالم كله ما عدا النفس والله[1]! والحقيقة أنهم لم يحسموا تفسير العالم كما ذكروا، بل حاولوا وفق وسعهم وجهدهم، فاتفق معهم من اتفق واختلف من اختلف، في جزء يسير جدًّا من العالم حولنا، ثم ماتوا جميعًا، واختلطت أجسادهم في التراب، ولا تزال النفس والروح من قبلهم ومن بعدهم من أمر ربي وحده لا شريك له؛ لأنه وحده هو من خلق الموت والحياة، وخلق الروح وقدرها غيبًا عنده.

*****

نهاية حياتنا بداية حياة لا تنتهي

فإذا كان ذلك شأن الحياة وسرها وغموضها، فإن الموت يقابلها في كل شيء، أي إنه معكوسها، وهما النقيضان اللذان لا يجتمعان أبدًا، وأهم ما يتميز به الموت أنه الحقيقة المجمع عليها، بل يكاد يكون الشيء الوحيد الذي يؤمن به البشر بالإجماع رغمًا عن أنوفهم، يتساوى في ذلك المؤمن والكافر والملحد والمشكك واللأدري، وكيف لا يؤمنون بالموت وهو مفنيهم وماحقهم وساحقهم وماحيهم من الوجود أجمعين، هو الذي يكبسهم تحت الأرض كبارًا وصغارًا مرغمين لا مختارين، هو الذي يأتي مرة واحدة، ولا يرجع أبدًا، إنه يبقى الحقيقة الوجودية المتفق عليها بلا خلاف، والحالة الأضعف جدًّا في جميع مراحل وجود الإنسان الذي يكون في أدنى إقراراه واعترافه متجليًا في تلك اللحظات التي تصاحب خروج روحه وما هو معها إلا متفرج مع المتفرجين لما يحصل في وجوده، فهو يحس بما يغشاه من دنو أجله، وتحيط به سكرات الموت وبصره شاخص ولا موقف منه سوى الاستسلام الكامل المرغم عليه إرغامًا لا يشوبه أي خيار مطلقًا.

سبحان الله! تذكر كيف كنا نستقبل المولود الجديد، إننا نحمله على أكتافنا بحب وحنان وفرح، نتطلع إلى كل حركة يفعلها، ونستبشر، ونحتفل بقدومه للدنيا، ونقيه حر الصيف وقر الشتاء، وخطر السقوط والأمراض والسباع حتى يبقى، ثم يترعرع

(١) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص١٩١.

ويكبر وكلما أصابه مرض حاولنا إنقاذه بالدواء فنفرح بشفائه اعترافًا منا بعجزنا عن جلب العافية له، وكلما أصابه جرح حاولنا رتقه وعلاجه، وإذا انكسر منه عظم حاولنا جبره، نرفده بالحياة ونسانده بالبقاء ونسعفه في المواقف، نستميت في حمايته ونحن على يقين بفنائه المحتوم، حتى إذا ترجح لنا أن أحد أعضائه مصاب وقد يتسبب في هلاكه بسرطان أو غرغرينا مثلًا، أهلكنا العضو كاملًا وبترناه بترًا، رحمة وشفقة وحبًّا كي نضمن بقاء الحياة في الجسد.

وهكذا نستميت بالدفع والمنع إلى آخر رمق، لكن في لحظة معينة كل أهل الأرض، بل كل من في السماوات والأرض يقفون بلا جدوى أمام قدر الرحمن، لحظة التسليم والاستسلام، إنها لحظة الموت، حيث تنفصل هذه الروح بأسرارها العجيبة عن ذلك الجسد المادي، فيتهاوى بنيانه وتتحطم عظامه، وتتعفن أعضاؤه، ولكن الأشد تحديًا في هذا الأمر كله هو أنك لا تدري أيها الإنسان، متى وكيف وأين تأتيك تلك اللحظة الرهيبة؛ لحظة الموت! بل لا يوجد مخلوق على الإطلاق لا من الأنبياء المرسلين ولا من الملائكة المقربين ولا الأنس ولا الجان يزعم أنه يعلم ذلك، مع يقين الجميع أنهم ميتون لا محالة: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠- ٣١] إنه تحدٍّ مفتوح زمانًا ومكانًا سيبهت كل مكابر، يستوي أمامه المؤمن والملحد والكافر والمشرك والعاقل والسفيه والكبير والصغير، هذا التحدي الصريح جاء من الحي الذي لا يموت وهو القوي الذي خلق الموت والحياة وقدر بيننا هذا الموت، وما هو بمسبوق ولا نحن بمعجزين، وبعدها سنحمل الإنسان على أكتافنا ولكن هذه المرة لوداعه، أبعد هذا كله يبقى مجال لمكابرة الخلق على الخالق، ألا يجب الاستسلام والركوع والسجود طوعًا أو كرهًا لمن يملك ذلك كله، ولا نملكه؟

هو وحده ذلك الإنسان الذي وصفه الله بذي اللب والعقل، ووجه إليه الخطاب مباشرة، سيدرك مسبقًا هذا الضعف الكبير أمام الموت قبل حدوثة، ولا ينتظر كغيره إلى لحظة المواجهة التي لا مرد لها، ويستعد للحظة الخضوع والاستسلام الكامل لأقدار الموت المنهية تمامًا لوجوده فوق الأرض، فيهب من لحظته مهللًا مكبرًا مسبحًا حامدًا ذاكرًا شاكرًا، وهو يجد متعة وأنسًا وطمأنينة، يركع ويسجد لله خاشعًا مستسلمًا لمن

يعلم ويملك ذلك، واستطاع بقوته وقدرته عليه أن يخفي ذلك تمامًا ولا حيلة للإنسان بمعرفته لضعفه.

هل تصورنا ماذا تعني لحظة خروج الروح من الجسد، تلك اللحظة الرهيبة الموحشة التي تنقل المتحرك إلى ساكن، والكائن الحي إلى أحجار ورفات، إنه الموت الذي يقفل كل ملف من نواميس وأقدار الحياة الدنيا مرة واحدة وإلى الأبد، لن تبقى لديك بعد الموت أذن تسمع بها أحداث الدنيا وضجيجها وصواعقها، ولا عين تبصر بها الأنوار والأشجار والأمطار والليل والنهار وما حولك، فلا نهار ولا ليل ولا يقظة ولا نوم ولا شروق ولا غروب ولا صيف ولا مطر ولا ثلج ولا أكل ولا شرب، ولا مرض ولا نور الشمس ولا والد ولا ولد ولا زوجة ولا مال، حتى القبر وجداره هذا الذي تراه إنما يخضع ظاهره لحواسنا نحن الأحياء في الدنيا، ولا يخضع أبدًا لشأن الميت بداخله؛ لأنه ليس ثمة حواس تعمل مع الميت داخل القبر بالمعيار الدنيوي المتعارف عليه، وسواء كان قبرك عشرة أمتار في عشرة أمتار، أم كان سنتيميترًا في سنتيمير واحد، أو كنت محروقًا أو غارقًا في البحر أو في بطن حوت أو سبع، لا فرق، وسواء كان مضيئًا أم في ظلمات الدنيا الدامسة، فهذا كله لا يعني شيئًا بالنسبة إلى الميت في داخله، إنما لك بعد الموت عالم آخر وقوانين ونواميس أخرى، لك فسحة من نوع آخر لا يدركها الأحياء، وإلا كيف يفسح له في قبره مد بصره والقبر الآخر بجواره بنصف متر بحسب قوانين الدنيا ونواميسها، ولك نور من نوع آخر لا يدركه الأحياء، وإلا لشاهدنا المقابر مضيئة لما فيها من أهل الخير والصلاح، ولك فيه نعيم أو عذاب من نوع آخر لا يدركه الأحياء وإلا لاستمتعنا أو لطالنا الرعب معهم.

إذًا بالموت يحصل الانتقال الكامل لكل شيء في كل شيء بالنسبة إليك، بالموت يكون العبور المطلق وفي اتجاه واحد لا رجعة فيه نحو عالم الآخرة، فلا دنيا لك أبدًا بعد خروج الروح ولا مال ولا أهل ولا ولد، هذا هو الموت، إنه وحشة الأحياء المطلقة لمن تدبره، يأخذ الناس بالعدل لا فرق بين رسول ونبي وصحابي وطاغية وفرعون وهامان وقارون وكبير وصغير وذكر وأنثى! يأخذ الصغير قبل أن يستمتع بدنياه، فينقله للجنة مباشرة، ويأخذ الكبير ليحاسب على ما أعطي من فرصة في الدنيا،

واستمتع بها، لم يكتب الله لأحد الخلد في الدنيا مطلقًا، إنه يخاطب أفضل خلقه محمد ﷺ قائلًا: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤- ٣٥] وأي وحشة تنظرك إن لم تكن وحشة هذا الموت الذي ينقل كل شيء في وجودك الأول إلى عالم آخر، بل عوالم أخرى، سبحان من يعلمها ولا نعلمها، ونسأله الرحمة والمعية ونحن نمر بأهوال ما علمنا منها وما جهلنا، نسأل الله أمنًا من كل خوف، وطمأنينة من كل وحشة، ما أحوجنا إلى الله في كل مرحلة من مراحل وجودنا! حقًّا إننا أمام مشهد مخيف، خاصة أنه لم يرجع إلينا أحد من الموتى ليحكي لنا معالم وأهوال ذلك الطريق الذي مر به بعد أن غادرنا صامتًا ساكنًا، وبعد أن واريناه الثرى، وأودعانه قبره، وانصرفنا لحياتنا ننتظر دورنا، لكننا ننعم بصدق خبر الله عما بعد الموت، وذلك من خبر الله العالم بكل شيء، ومن أصدق من الله حديثًا؟

كم نحن غافلون عن هذه الحقائق المرعبة في وجودنا والآتية إلينا لا محالة، لقد أشغلتنا سكرة الحياة وملذاتها عن عبرة الموت وسكراته، إننا نعيش حياتنا لاهين عابثين كأننا في مأمن منه، كم أنت بليد الإحساس أيها الإنسان، وأنت غافل في سباتك، وقد حددت لحظة نهايتك قبل ولادتك، وهي محفوظة قبل وجودك كله، وها هو الموت أمامك يقترب منك كل ثانية، إنك تموت كل ثانية ينصرم منك عمر لا يرجع أبدًا، وكل ساعة تمضي من عمرك لا ترجع أبدًا، وكل شهر يمضي منه لا يرجع وكل عام يمضي لا يرجع أبدًا، ومثله العمر كله، فكل عمر يمضي لن يرجع أبدًا، إننا نموت ببطء كل لحظة منذ الولادة، شعور يغشاني هذه اللحظة وأنا أكتب هذه السطور أسابق الأجل حتى تبقى أصابعي معي متحركة سليمة أكمل بها فصول هذا الكتاب كي أنشره قبل أن يدركني الأجل، فتموت معي جوارحي وتذبل أصابعي، أسابق الأجل وكلي وجل من ألا أتمكن من إكمال هذه المهمة، ولست متأكدًا، هل سيكون ذلك على يدي أو يكمله ورثتي من بعدي، إنني مثل غيري مرشح في كل لحظة من عمري أن أودع هذه الدنيا فجأة إلى عالم آخر، نعم، إنه الموت الذي نتحدث عنه الآن، الموت هادم كل لذة، ومفرق كل جماعة، الموت - يا صديقي - هو الحقيقة التي لا جدال فيها ولا خلاف

فلسفي حولها حتى تقول: يمكن أو لا يمكن أن يقع، إنه الموت الماثل أمام نظر الجميع، حقيقة واقعية عجز عن مواجهته من كان قبلك، فلم يدفعه عن نفسه مطلقًا، وسيعجز من سيأتي بعدك، ولا يحتاج وقوعه إلى قناعتك فيه حتى يفعل فعلته في قلبك ورئتيك وكبدك وجمجمتك التي سيدحرجها الموت كالكرة المهملة في زاوية القبر، وفي جسمك الذي سيختلط بالتراب ترابًا كما بدأك منه الخالق، سيفعل الموت فعلته في كل مخلوق حي؛ لأن الذي أوجد الوجود قد حكم بحكمه، وهذا هو حكمه، ولا معقب لحكمه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] إننا جميعًا صف واحد في الطابور ننتظره! رحماك ربنا.

*****

الموت الصاعق!

وحشة الموت ليست محصورة في أنه ساحق ماحق مُنْهٍ لوجود الحياة، بل تتجاوز ذلك إلى أنه ضيف مفاجئ خالٍ من أي عاطفة أو رحمة، لا يستأذن ولا يعترف بالمواعيد والارتباطات ولا بالسفر ولا بالحضر، ولا يستشير أحدًا، إنه صاعقة تضرب في لمح البصر، تؤدي إلى نقلة أبدية حتمية ولمرة واحدة لا ينجو منها أحد، يضرب المنازل الآمنة بلحظة خاطفة يختار هدفه بدقة متناهية، فينتشله من بين المؤجلين حوله بلا تفاهم ولا رجعة ومن دون إشعار مسبق ولا أدنى تردد، آجال قد دونت وأقدار قد قدرت وتواصلت، وأنت أيها الإنسان، أضعف حلقة فيها إنه الطريق الحتمي للجميع.

كم كانت المواعظ المؤثرة تطرق أسماعنا عن الموت وكأنه لا يعنينا، قد تتساهل في تصورك للموت الآن وأنت على قيد الحياة، وكأنه لا يعنيك، لكن من الصعب أن تتخيل أنه أنت ذلك الميت المحمول على الأكتاف نحو المقبرة، لن تدرك ذلك بحواسك هذه وأنت ميت محمول، فاستدرك أمرك وأدركها ما دمت حيًّا مدركًا، ستدرك مقدمًا أن الموت هو أن تتوقف عجلة الزمان معك، وتتوقف الحركة في هذه الحياة إلى نهايتها، وأنه انقطاع نهائي عن جميع قوانين الحياة ومظاهرها، تخيل أنك أنت وأفراد أسرتك من

أب وأم ولد وأخ وأخت وعم وعمة وخال وخالة، تعيشون أيامكم ولياليكم سعداء في غفلة خادعة من الدنيا، بينما كل واحد منكم بلا استثناء وفي أي لحظة من أي يوم، مرشح ودون سابق إنذار ودون مقدمات أحيانًا ليكون هدفًا مباشرًا ودقيقًا لقوة غير محسوسة، لا تسمع ولا ترحم ولا تتفاهم ولا تتردد تمسك بأحدكم مسكة واحدة لا انفكاك منها إلى الأبد، فتسكت لسانه وتوقف قلبه وتقفل رئتيه وعينيه وحركته، وتنشف منه كل مبتل، وتبلل منه كل ناشف، فيصبح الميت بين يدي الأحياء مجرد قطعة لحم وعظم رطبة تنتظر التعفن خلال أيام قليلة، فيشدّه الموت من بينكم شدًّا، ويأخذه أخذًا، فهل تستطيعون فعل شيء؟ ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦- ٨٧].

إنه خروج روحك من الجسم إلى يوم القيامة، وقد يكون هذا خلال لحظات من الآن ستنقطع حتمًا عن كل شيء أشغلك في هذا الوجود، سينتهي تفكيرك هذا وكتاباتك وحواراتك وجدلك ومالك وولدك وزوجك كلها ذاهبة عنك لحظة الدفن، وتاركتك وحيدًا في فراغ ظلمة القبر الدامس، إنه ظلام ظاهري بمعايير الدنيا التي نعيشها الآن، ولكنه نور آخر أو ظلمة أخرى بمعايير حياة أخرى سنحياها فيما بعد، وما تبقى من جسم شخصك الكريم المبجل في الدنيا، مهما كان مقامه، سيكون كل ذلك حسيًّا ومعنويًّا مجرد بقايا رفات وعظام متناثرة هنا وهناك تحت الأرض في الظلام بلا حراك، ولو نُقلت بضعة أمتار من مكان دفنك لما عرفنا عظامك من عظام الآخرين حولك إلا باللجوء إلى تحاليل معقدة ليست بمقدور أكثر الناس فعلها، بل وأحيانًا لا نميز عظام البشر بمجرد النظر عن عظام الكائنات الأخرى إلا بصعوبة! ولكن يبقى سجلك الدنيوي مرصودًا عند الخالق في كتاب هناك ينتظرك لم يغادر صغيرة ولا كبيرة في حياتك الدنيا إلا أحصاها.

هل أدركت فعلًا هذه الحقيقة وهذا المآل بعد الرحيل والحاجةإلى اللجوء الفوري إلى الله الخالق الباقي لضمان أمرك قبل الرحيل وبعده، أم ما زلت تتصور أنك طرف آخر متفرج على مسارح الأقدار في هذا الوجود تستطيع الانصراف متى ما أصابك الملل إلى خارج المسرح، وتتركه لأهله وكأنك غير معني بهذه النقلات الموحشة، وأنك ستراقب جسدك من بعيد محمولًا على أكتاف الناس ميتًا، تتفرج عليه وكأن الميت غيرك، فأنت

تتخيل أنك ما زلت متكئًا على أريكة في مجلس قومك تراقب صورة جسدك مسجى أو محمولًا أو مدفونًا، كما كنت تراقب أجساد الموتى من قبل، ولا كأن الأمر يعنيك حينه، متخيلًا أنك تراقب جنازة غيرك دون أن تتيقن أنك في هذه المرة أنت أنت بطل المسرح! وأنت أنت الجنازة! وأن عالمك من تلك اللحظة غير عالمهم تمامًا، وأنه أنت ذلك الميت المسجى بالكفن أمام المصلين وأنت هو أنت بذاتك المبجلة من يدرج تلك اللحظة في اللحد، ويهال عليه التراب، وأنت الذي سينصرف عنك الناس تلك اللحظة، ولن يرجعوا إليك أبدًا أبدًا.

وإن تعجب فعجب أمرنا كيف استطعنا الجمع بين هذا الحزن على ميتنا والبكاء على الفراق من جانب، وبين هرولتنا وسعينا حثيثًا مع أهلنا وأقاربنا في مسيرة حاشدة لدفن ميتنا دفنًا، ورمسه في التراب رمسًا، ألا تستوقفك لحظة الدفن هذه وأنت تسابق الزمن لإدراجه إلى بوابة التراب الكبرى، التي لئن كان يرجى من بوابة السجون الموصدة في الدنيا أن تنفتح لمن كان حيًّا محكومًا بالمؤبد ليرى أهله وولده وماله، فإنه لا يُرجى انفتاح بوابة القبر في الدنيا على الإطلاق، إنها بوابة المرور الواحد باتجاه واحد، لا تفتح إلا مرتين فقط، مرة للدخول إليها من الدنيا بكيفية ندركها ونعقلها، وأخرى للخروج منها إلى الآخرة يوم القيامة بكيفية لا ندركها في الدنيا، ولا نعقلها لكننا نؤمن بما جاءنا عنها من الحق بعد أن أخبرنا عنها الحق المبين، فياويلتنا حينئذ يوم تفتح هذه البوابة إلى ما هو أعظم، ولا نملك حينها من أمر تلك المرحلة إلا ما ادخرناه لها في حياتنا الدنيا هذه، قبل أن يعلن الموت نهاية مهلة العمل وفسحة التوبة إلى الله الذي له الملك في كل حين، وهو الواحد القهار.

فهل أدركنا مع ضعفنا هذا أن الموت واقع علينا في أي لحظة، وأنه سينقلنا مباشرة إلى أهوال أشد خوفًا وفزعًا من كل خوف وفزع مر بنا في الدنيا إلا أن نلوذ بأمن الله بالإيمان به، حيث أمامنا يوم لا مال لنا فيه ولا والد ولا ولد ولا صاحبة ولا فصيلة، هذا هو الموت الذي يفر منه كل حي، بينما هو ملاقينا: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨] وهذا هو الموت الموصل فورًا إلى القبر خلال لحظات من الصلاة على الميت، بعد

انقطاع جميع الأواصر والروابط الدنيوية عن كل شيء بسببه، ليفوج العالمين إلى عالم آخر وبحالة أخرى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وهذا هو الموت أول أهوال القيامة والناقل للجميع إلى حياة برزخ علمها عند الله، ومن ثم إلى حشد الأولين والآخرين في ميدان علمه عند الله، ولكن في وضع مختلف جدًّا، فرادى كالفراش المبثوث: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥].

*****

هل أتاك حديث الموتى؟

من يستطيع أن يأتينا بأخبارالموتى من بعدنا؟ ندرك صعوبة استحضار مثل هذه التطلعات ونحن في حياتنا الدنيا غافلون لاهون ساهون، ولكن لنتذكر دائمًا أن هناك خبرًا عظيمًا عند الموتى الذين رحلوا عنا بعد رحيلهم، لا سبيل لمعرفته إلا مجملًا من الوحي، أما تفاصيله فستكون مذهلة بلا شك، تخيلوا لو رجع إلى الدنيا ميت واحد منهم فقط ولو من أدنى عامة الناس، فأخبرنا أخباره عيانًا كما شهدها حتى وإن كنا نعتقد جازمين أنه الحق كما أخبرنا الوحي تصديقًا بالقلوب لا إدراكًا حسيًّا! فهل سيبقى على وجه الأرض كافر بعد ذلك الخبر؟ هل سيبقى عليها ملحد يجادل في الله يغير علم؟ فإن قال مكابر: كيف تجزم أن خبره ذلك الذي سيجعل الناس يؤمنون كافة صحيح، نقول له تنزلًا: وأنت كيف تحكم بأن لا خبر أو أخبار عنده مثل هذا لا يجعل الناس مؤمنين كافة؟ ولا سيما ونحن نصدق خبر السماء عن ذلك، لقد جاءنا نذير مبين وصادق أمين، وهذا النذير ليس من عامة الناس كي نختبر عدله وصدقه وحاله، بل هو المصطفى من بين ذرية آدم عن بكرة أبيهم ﷺ وبشهادة قومه أنه الصادق الأمين قبل نزول الوحي وبعده، فأخبرنا عن ربه ﷻ بالكثير عما سنواجهه بعد الموت، وحيًا من عند الله، حقًّا وحقائق كالمحجة البيضاء، نورًا وهدى، لا يرتبط وقوعها بإيمان الناس من عدمه، جاءنا بما ينسجم مع فطرتنا التي فطرنا الخالق عليها، ومع ما يصدقه ما حولنا من الآيات الكونية التي صرفها ربنا لنا، فأصبحنا بعقولنا المدركة بين كتابين

عظيمين، كتاب مقروء هو كلام الخالق الميسر لكل مدكر، ويصف فيه أمرنا كله جملة وتفصيلًا، وكتاب منظور من آيات في الوجود تتطابق مع ما ورد في الكتاب المقروء، فما الذي يحول بيننا وبين الإيمان الصادق واليقين الجازم بما أدركناه بعقولنا، وبما صدقنا به النبيون والمرسلون؟ خاصة أننا لا نملك من أمرنا شيئًا، بل نحن مِن مُلكِ من يملك كل شيء وحده لا شريك له، ومردنا إليه طوعًا أو كرهًا، ونحن عبيده ولا خيار لنا إلا أن نقول بكل تضرع وخوف ورجاء ورغبة ورهبة منه: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

*****

خيار الإيمان ولا خيار بعده

وبعد أن علمنا خبر هذه الوحشات الثلاث، لنتذكر تلك التساؤلات التي وردت في صدر هذا الكتاب، عندما تخاطبك نفسك من داخلها قائلة لك: من أنت؟! ومن جاء بك إلى هذا الوجود؟! وإلى أين ستذهب بعده؟! وكيف ومتى وأين يتم ذلك؟! إن الذي يدفعك إلى تلك التساؤلات هو حقيقة تلك الوحشات المحدقة بك في حياتك، وأنت في هذا الوجود، من وحشة إلى أخرى، فأنت بلا زمان محدد، ولا مكان ثابت، لكن الخالق الرحمن لم يكن ليجعل من هذا الوجود خوفًا ولا وحشة ولا قلقًا لعباده القريبين منه، فلا يمكن أن يكون هذا الوجود خاليًا من الأنس والسعادة والابتسامة والطمأنينة والأمن؟ قطعًا لا وألف لا، لكن الأمر يحتاج إلى الرجوع إلى المصدر الصافي والمنبع الأوحد لكل شيء في هذا الوجود حتى نلوذ عن هذه الوحشات بدفء موجدها والمتصرف فيها.

لا يقتصر الأمر على وحشات ثلاث، بل هناك وحشات لا نهائية في الوجود، منها مثلًا وحشة الحدث في الكون، وهو أننا نشاهد من الكون فقط من سجلات الماضي، ولا يمكن أن نعلم ماذا يحدث به آنيًّا، ولا ما حدث قبل آلاف السنين! فنحن نرى الضوء القادم إلينا من الكون السحيق ليخبرنا عن النجوم! وما هو في الواقع إلا سجل

لماضيها، حيث قد تكون هذه النجوم اندثرت قبل ملايين السنين، وما زال الضوء يصلنا من مكانها لبعدها عنا، ولا يوجد أي نجم تراه في السماء في موقعه الحقيقي نظرًا لبعد المسافة، وهذا يؤكد فقر الخلق إلى من يقدر على توفير الأمان لهم من تلك الوحشات، إذ يستحيل الاستغناء (المزعوم) والادعاء الباطل أنه بالإمكان الحياة من دون عبادة الخالق وتوحيده والاستعانة والاستغاثة به، إنك لا تقدر على ذلك وأنت تدرك تمامًا أنك ضعيف كل الضعف في مواجهة هذه الوحشات المحيطة بك مستسلمًا لها كلها وأنت تعلم يقينًا أنها مجرد جند من جنود من أوجد الوجود كله وأن قدرها بيده، جهلًا تزعم أنك بمفردك تستطيع النجاة وأنت لا تملك أي شيء في قدرك وقدرتك، أنت تأتي إلى الدنيا سقيمًا محمولًا، وترحل عنها ميتًا محمولًا، لا تقدر على شيء في أول حياتك، فلم تدخل إلى الدنيا كبيرًا ماشيًا، بل حُملت إليها صغيرًا باكيًا، ولن ترحل عنها في آخرها مختارًا، بل ستحمل أيضًا ميتًا مبكيًا لمن بعدك، أنت مكلف في فترة تكليف محدودة تمرُّ عليك كلمح البصر في وسط حياتك التي تبدأ بالبكاء القادم، وتنتهي بالبكاء المودع بسبب الموت، إنك تأتي باكيًا وترحل مُبكيًا، ومن فوَّت تلك الفرصة فلا يلومنّ إلا نفسه، حيث لا يمكن أن يكون له أمان أو مهرب من هذه الوحشات إلا بالاتصال القوي والفوري مع موجدها ومدبرها القادر عليها، حيث تضمن به السلامة منها كلما دب إليك الرعب من وحشات الدنيا وما بعدها، تنقلب إلى أمان وطمأنينة بمجرد ارتباطه بالذي خلقها وقدرها، وأحاط بها علمًا ونواصيها بيده.

أرأيت كيف يصبح وجود الإله الأوحد القادر الباقي ضروريًّا في الوجود كله؟! إنه هو الذي تلوذ به من هذه الوحشات، وتستقبل منه رسالات الخير والأمان والسلامة والسعادة في الكون بواسطة الرسل والكتب السماوية والداعين إلى الخير، كلها تدعوك بكل تودد ورحمة وشفقة وبأيسر لغة موصلة للمعاني، لتسلك طريق النجاة متزودًا بالزاد الضروري، حتى تفوز بضمان الأمن العظيم الذي ليس بعده أمان، لا قبل الموت ولا بعده، ألا تحب أن تكون ممن وعدهم المالك لكل شيء، والقادر على كل شيء بالأمن المطلق في أشد لحظات الهول والفزع بقوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨]؟ ألا تريد أن تضمن متعة السلامة مقدمًا في الدنيا يوم

أن تتنزل الملائكة مبشرين بالأمان لكل مؤمن ومؤمنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]؟

هذا أمان الله وحسبك به من أمان، إنه والله الأمان الأبدي العظيم المنجي من كل خوف، أمان يحميك من كل وحشة، أمان يرافقك أخي المؤمن، في مسيرك في هذا الطريق المستقبلي الذي لا محيص عنه ولا مهرب، عند إيمانك بخالقك القادر على نقلك من هذه الوحشات إلى طريق آمن وسفر مريح حتى تجتمع في النهاية ليس فقط مع من تحب في أحسن حال قدره الخالق في هذا الكون: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] بل أيضًا مع المصطَفَين الأخيار من المرسلين والأطهار في أعلى درجات النعيم المقيم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وبهذا الإيمان وحده يحصل لك الأمان المطلق، وتنقلب تلك الوحشات الزمانية والمكانية والوجودية والموت إلى أجمل وألذ رحلة سياحية كونية تستمتع فيها بكل استطلاع لمجهول، وتعيش كل مرحلة جديدة في وجودك وقلبك معلق بالخالق العظيم وكأنك وافد إليه ضيفًا تتفرج في طريقك إلى كل ما يراه غير المؤمن أهوالًا مفزعة ووحشات مهلكة، أما أنت فبإيمانك هذا تراه نعيمًا وطمأنينة وأمنًا، ومن سعادتك في الدنيا أنك تؤمن بذلك الأمن وترجوه، ولك حسن المآب المطَمئن أيضًا في الآخرة بعد ارتحالك من الدنيا بحفظ الرحمن ورعايته، فتتواصل الطمأنينة والأمان عليك: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٨- ٢٩].

ليس كثيرًا أن يقال لك والحال هذه: انتبه! استيقظ! استعد! يا صديقي، هذه المرة ليست كتلك المرات التي كنت تحضر فيها صلاة الجنازة طمعًا في قيراط أو قيراطين، مستعجلًا للانصراف من الصلاة إلى دنياك وكأنك معمر فيها، هذه المرة الناس هم من جاؤوا بجنازتك طمعًا في تلك القراريط التي كنت تطمع فيها إبان حياتك، أما أنت فقد

انتهى الأمر قبل أن تغسل أو تكفن، لقد أقفلت ملفات حياتك الدنيا كلها، فلا زيادة للحسنات ولا نقص من السيئات، إلا بتلك الثلاث الموعودة: «**صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[1]، أنت الآن ميت، يعني أنك لا تستطيع تحريك شعرة في جسدك، فضلًا على عضو من أعضائك التي كنت تلوح بها يمينًا وشمالًا في حياتك دون حساب، لقد كنت قبلها تمشي برجلك، وتبطش بيدك، وترى بعينك، وتسمع بأذنك، وتنطق بلسانك، وتعقل بقلبك، وأنت في تلك اللحظة في عالم آخر لا تتابع عالم الأحياء الذين أصبحوا وحدهم يتابعون جسدك، وينتظرون دورهم مثلك، وأنت في عالم آخر، لا يعنيك شيئًا أنهم حملوك أو وضعوك، دفنوك أم أحرقوك، أكلتك السباع أو الدود في اللحد، أنت بعد الموت مجرد كتلة من لحم وعظم تقدم للبلى والفناء جسديًّا، انفصلت عنك جميع نواميس الحياة الدنيا وزخرفها وقوانينها، لتدخل في ظلام الموت وظلام القبر وظلام البرزخ القادم، فلا نور ولا ضياء إلا ذلك النور الذي يكابر الإنسان بالصد عنه وهو بكامل قواه وعافيته بالدنيا ظنًّا منه أنه في سعة من أمره أو أنه في غنى عنه، إنه ذلك النور الوحيد والبرهان الرباني المبين الذي طالما ناداك الخالق في حياتك أن تتمسك به لتنير به طريقك الموحش بعد الموت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

إن هذا النور الذي أنزله من يملك كل شيء في حياتك ومماتك وحتى التراب الذي سيضم رفاتك، ويعلم مقادير الدود التي ستأكل جسدك، نور الله، المصباح الفعال في تلك الظلمات الموحشة، إنه نورٌ حين لا يوجد نور سواه، إنه نور الخالق القادر على جعله نورًا للميت أفضل من أي نور نتخيله في عالم الدنيا، ولك أن تختار أيها الإنسان، الأخذ به أو تركه، بعد أن تعلم علم اليقين أنه ليس لك من الله مفر وليس لك من دونه ملجأ، ولئن أعطاك حرية الاختيار في حياتك الدنيا تفضلًا منه سبحانه فقد أخبرك عن عاقبة كل خيار، وخيار العقلاء وأولي الألباب واحد فقط، إنه الإيمان بالخالق والتصديق بخبر السماء، طمعًا في النجاة والسلامة، وأوله الإيمان بوجود الله والإقرار بألوهيته وربوبيته

---

(١) الحديث رقم (١٦٣١) من صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا مات الإنسانُ انقطع عنه عملُه إلا من ثلاثةٍ: إلا من صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ ينتفعُ به أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**».

وأسمائه وصفاته، فهو وحده الذي معك أينما كنت في الحياة والممات والبعث والنشور والحساب والثواب، وهو وحده القادر على أن ينقذك من كل هول ووحشة تواجهك في طريق الأهوال الطويل الموحش الذي لا يقلبه إلى طريق أمان وأنس وابتسامة سوى الرحمن الرحيم الذي ترك لك يوميًّا نافذة استجداء ورجاء ودعاء إليه سبحانه وأنت تكررها واقفًا بين يديه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

*****

إنك أنت المعني بالخطاب

إذا أدركت أنك لم تُخلق عبثًا، وأن وجودك بين خوف وأمن ولا ثالث لهما، فمتى تدرك أنك أنت المعني بخطاب الوحيين دون سواك في هذا الوجود، إنه أنت فلا تلتفت! ولا تنشغل أو تتشاغل بالدنيا! فالاستجابة لنداء الله توفر لك الأمان من كل وحشة، فانفر إليه وحده دون سواه، فهو من وعدك بوعده الصادق، بأن تلازمك السعادة والطمأنينة في الدنيا مع الإيمان، وأن تكون نهاية طريقك الوجودي في جنات النعيم، حيث تترك وراءك كل هم وغم ونصب وتعب ومرض وموت، كي يلتم شمل الأسرة الدنيوية مرة ثانية، بعد أن بعثرها الموت وفرقها ومزقها، نعم، بفضل الله وبرحمته سيحصل أعظم اللقاءات هناك، في جنات النعيم، فهذا أبوك الذي فقدته ودفنته باكيًا واقفًا على قبره تدعو له حتى سلوت من فراقه فيما بعد، وهذه أمك الحنون الغالية التي انفطر قلبك لفراقها وكبتّ ندمك على عدم برها قبل موتها، وهذه زوجتك الحبيبة الوفية مربية الأولاد وحافظة العهد ولصيقتك بالفراش سنين عددًا، التي أظلمت عليك الدنيا بفراقها، فبقيت بعدها تحاول إخفاء ذلك الشعور العظيم بفراقها حياء ممن حولك من الناس، وهذا زوجك الوفي الذي جفت دموع عينيك لفراقه في الدنيا، وظننتِ مع فراقه أنه الفراق الأبدي، فاستوحشت من غيابه لولا أن الله سلم، وهذا فلذة كبدك الذي سبقك شفيعًا وهو صغير، أو تبعك وهو كبير، وهذا العم وتلك العمة والخال والخالة والجد والجدة وهذا القريب وهذا الجار وهذا الحبيب وهذا المحب حالهم كما وصفها الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

هذه ليست رواية خيالية، ولا أحلامًا وردية، إنه الحق مثل ما أنكم تنطقون، إن هذا لهو القصص الحق، كلهم مجتمعون في نعيم لا شقاء بعده، كأنه لم يمر عليهم شيء مما ذكرناه من وحشات، لقد تجازوا ذلك كله، فأصبحوا منشغلين في النعيم المقيم: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٥- ٥٨] والأجمل من هذا أنهم لم يصلوها من وحش ولا خوف، بل من طريق آمن لما آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، لم يستوحشهم الزمان بوحشته، ولا المكان بوحشته، ولا الوجود ولا الحياة ولا الموت بوحشته، تقلبوا في سعادة في الدنيا، وجاؤوا منها في مأمن متواصل منذ مفارقتهم الحياة، وفي قبورهم أيضًا، وحتى في المحشر تتنزل عليهم ضمانات الأمان تترى من الرب الرحيم: ﴿﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨- ٧١].

سبحان الله! ما الذي يصرف القلوب عن هذا العرض العظيم، وأي خيار لعاقل عنه؟ أيرغب الغافل في الوحشة والخوف والندم والخسران المبين عن الطمأنينة والأمان والفرح والفوز المبين؟ إن المطلوب هو الإيمان بالله والعمل بموجبه بقدر الاستطاعة، وهذا أمر في غاية اليسر، ألا فاستيقظ أيها الغافل، من نومك العميق، واخرج من ضباب الغفلة والتيه والحيرة إلى نور اليقين، وتدبر معي! أرأيت كيف كانت مشاعرنا ونحن نتقلب في تلك الوحشات الثلاث السابقة، لنجد أنفسنا أمام أمان وضمانات وسلامة مطمئنة! لا أقول: اختفت لك الوحشات، بل انقلبت إلى مفرحات مؤنسات لمجرد أننا آمنا بأن الله الذي هو خالقها وخالقنا ولا منجي لنا منها سواه، فقد فوضنا جميع أمرنا إليه، وتوكلنا عليه وحده، ثم آمنا بوجود ما بعد وحشات الدنيا من وحشات في الآخرة وأهوال لا تعد ولا تحصى، ولكننا أيضًا آمنا بأن ملاذنا منها قلت أو كثرت هو الله وحده الحي القادر الرحمن، تلكم والله هي العيشة الراضية.

ألسنا جميعًا نعتقد أن كل نفس ذائقة الموت؟ وأننا سالكون طريق الأهوال بعد

الموت لا محالة، أفلا نحصنه بالإيمان ليكون آمنًا في دنيانا وأخرانا بعد تلك الوحشات المهلكة؟ وهل يتردد عاقل سوي من أن يسلكه مستعينًا بالله مؤمنًا به؟ أحقًّا بهذا الإيمان الذي لا يكلفنا شيئًا، سوف نأمن في كل مرحلة من مراحل طريقنا إلى الله، وسنلقى الأحبة ثانية، بعد أن تمزقت على فراقهم القلوب، وذرفت عليهم العيون في الدنيا؟ أبشر أخيّ وأخيّتي، إن الجواب هو: نعم ونعم ونعم ونعم، إي والله بأن هذا هو الخير الذي ينتظر المؤمنين وإنه لحق مثل ما أنهم ينطقون، بهذا الإيمان سيلتقون، وعلى وعد الرحمن لهم بالمغفرة سيجتمعون، ويتذكرون حالهم من قبل، بل وسيكون حديثهم على تلك الأرائك وهم متكئون هو كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦- ٢٨].

*****